مسار اختياري

رواية

حسن البارودي

كاريزما للنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى.

الكتاب: مسار اختياري.

الكاتب: حسن البارودي.

تصميم الغلاف: محمد مجاهد.

تدقيق لغوي: محمود البكري.

إخراج الفني: محمود ربيع.

رقم الإيداع: 2019/21344.

الترقيم الدولي: 978-977-6689-30-5.

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع المغفرة المتفرع من شارع العشرين بجوار مدارس حسام الدين

الخاصة- فيصل- الجيزة

موبايل: 01009823984- 01126026691- 01061813345

جميع الحقوق محفوظة

إهداء

إلى من ازداد شوقي إليها...

إلى التي ترقد بسلام....

هل ترين مساري الآن؟!

إلى أمي....

حسن البارودي

الجزء الأول

"هل فات الأوان؟!"

إن وجدت الطريق مظلمًا، فلا تقلق...

هي مجرد بداية..

تنفيذ: الإثنين ١٢ فبراير

إن كنت قد رأيت هذا المشهد من قبل فأنت متابع جيد للأفلام العربية القديمة التي يشتد فيها المطر في ليل عاصف وتهيج فيها أصوات الرعد، هو المشهد المرعب الذي تكرر أيضا في لقطات هوليوود الشهيرة، الوقت الذي تعرف فيه أن القتل قادم لا محالة وأن الموت دائما هو العنوان...

الخوف.. هو الشعور الناجم عن الخطر أو التهديد ويشعر حاسه بالتقيد ويفقد معنى الحرية..

هذا ما حدث لياسين وهو يمشي في أحد الشوارع التي احتلها الهدوء والسكون، يسير وحده وهو يترقب وخائف أو للدقة مرعوب..

يقول علماء النفس إن الخوف يدفع صاحبه إلى تغيير في السلوك مثل الهروب أو الاختفاء، هل يدفع الخوف إلى القتل؟!

تخيل ياسين وهو يمشي في هذا الطريق المظلم ومعالمه القليلة العواقب التي تنتظره، فكر أكثر من مرة أن يعود ولا ينفذ ما أقدم عليه، ولكن الخسائر كبيرة، والتهديد واضح والتذكير معلوم، هو لا يتحمل خسارة أخرى، فقط يحارب أفكاره في اللحظات الأخيرة، ويخشى اللحظات الحرجة، ولا يفكر في لحظات الانهيار،

يتقدم خطوة فالأخرى، في الظلام عينه لا ترى جيدًا وقلبه ينبض بالرعب وجسده يرتجف، عامود نور مضاء وسط هذا السواد القاتم، وضعه في موقف جيد للقراءة، اقترب من اللوحة المعلقة وقرأ ما تحتويها «البستان»، لولا هذه الرسالة المختارة التي طعنته في مقتل، وسوف تغير مجرى حياته للأبد، لرجع ولم يقدم على فعلته، يمضي وهو يتذكر محتواها ((التنفيذ النهاردة الساعة ١١، مبنى رقم ٣ شارع البستان... إيمان عبد السميع.. تذكر))، إنها كلمة تذكر التي تضطره للإقدام على ما لم يكن يشبهه يومًا ما.. لولاها لما اضطر لهذا، ولم يتمنَ أن يصل إلى هذا قط، ولكن بمكالمة تليفونية تستغرق ٣٠ ثانية فقط من الممكن أن يخسر كل شيء في هذه الدنيا، ويبقى ملعونًا في نفوس الناس، الوقت الذي تخسر فيه نفسك وتخسر الحياة...

ياسين صاحب الخمسة وعشرين عامًا، شاب يعمل في إحدى الشركات الهندسية العالمية التي التحق بها منذ عام بعد تخرجه بقليل، مستواه المبهر وذكاؤه الواسع جعله مهيأًا لفرص عمل كثيرة، وصلت به في النهاية إلى شركة كهرباء وطاقة رفيعة تدير إحدى المشاريع الكبرى في البلد، غير بنفسه الأفكار الشائعة بعدم وجود فرص عمل وأكد بنفسه مبدأ ابدع بنفسك، تجد الطريق أمامك فسيحًا.. لم يقف مستقبله وطموح شبابه عند هذا الحد، بل إن خطبته منذ بضعة أشهر على «مريم» كانت واحدة من أهم اللحظات عنده، جعلها ذكرى لباقي عمره،

وحمد الله عليها كثيرًا وما زال يشكره إلى هذا الوقت القريب.. سارت حياته على النسق الصحيح إلا أن جاء اليوم المشؤوم هذا، فمنذ يومين وصلت له تلك الرسالة، وهو عائد من عمله وقت العصر، الرسالة التي ذكرته بالسر المكتوم الذي استطاع دفنه ما يقرب السنة! أوقف سيارته وتوقفت دماؤه حينها وهو يقرأ ما تحتويها.. وقع بتلك الرسالة تحت داء التهديد والابتزاز، فأصبح بين أمرين إما أن ينفذ أو أن يعود أدراجه ليلقى من المصائب ما سيلقى به في الهاوية رغمًا عنه..

****

العاشرة والنصف ليلًا، يمشي ياسين وهو متخفي، بالرغم من عدم وجود أحد إلا أنه يتخفى ويخشى الظهور، يزيد من قلقه هذا الصوت، نعم هو صوت المطر الذي تحدثت عنه من قبل وهي بالفعل صيحات الرعد.. هؤلاء المجرمون يختارون أوقاتًا مخيفة، لا تكذب علينا الروايات، ولا تخدعنا الأفلام عندما تصور لنا مشاهد القتل وأفلام الرعب التي تكبس الأنفاس.. لم يجد في هذا المكان المظلم غير عدد من المباني تحت الإنشاء والدكاكين المغلقة في هذا الوقت المتأخر من الليل، مصابيح الأنوار قليلة جدًا، تكاد تجد واحدًا كل ثلاثة أمتار، هناك صيدلية يخرج منها الأنوار وتدب فيها الحركة، ولكن بعيدة رآها بصعوبة تبعد عن شركة الأدوية بحوالي أربعين مترًا، مكان عجيب ومخيف، وهو يمشي ويخطو للأمام، لكن حواسه كلها توقفت، قلبه يخفق بشدة

وضميره يمنعه عن الاستمرار ويطلب منه العودة في الحال..

تعمل إيمان عبد السميع في شركة "bwc" للأدوية والعقاقير والتي كانت ملكًا لوالدها، ولكنه رجل تخطى السبعين يلزم الفراش ويعد أيامه المعدودة في تلك الدنيا، يتذكر خطاياه، وكم كانت أليمة يوم فعل ما فعل..

تختلف لحظات الموت عن البعض، منهم يندم ويتذكر ويلجأ للتوبة ويسعى للغفران ومنهم من يعش عمره الذي اعتقد أنه ذهب هباءً، منثورًا.. طريق الاثنين واحد.. الموت.

كانت إيمان وحيدة أبيها، ماتت أمها منذ أعوام، وتركتها ترعى هذا الرجل العجوز أحمد عبد السميع الذي بدوره لم يجد مؤنسًا وقلبًا رحيمًا وشيئًا يملأ قلبه الفارغ غير إيمان ابنته، ترك لها العمل في شركته وإدارتها وأوصاها بهذا بعد وفاته، هي لم تفكر في الزواج رغم تخطيها الثامنة والعشرين من عمرها، بل رغم كثرة توافد الخاطبين لها فإنها فضلت البقاء بجانب أبيها الشيخ، أحست أنها خلقت لهدف ما وقد حان موعده، فكان همها الأول أباها ثم عملها الذي شغلها أيضًا في الوقت الحالي.. ما الذي يحمله الغيب لها؟!

الحادية عشرة إلا ربع، وياسين في حيرة، مجبر على الاختيار، هل يصبح الاختيار يومًا إجباريًا؟! أمامه الكثير، يعتقد أن أمامه خيارين، أولهما أن يبقى بعض الوقت في هذا الصراع

وهذه الفوضى وثانيهما الخضوع.. أو أن يختار كليهما.. نهايته قادمة هذا لا شك فيه... يسمع صون رنات هاتفه، وكأنه كان يحتاج للمساعدة الفورية، ويرغب كثيرًا في هذا الاتصال، ''هل من منقذ؟!''، التوتر في ازدياد ودقات الثواني قاتلة، ينظر إلى الشاشة، وإذا بها «مريم»، لم يغير هذا إلاسم منذ أن عرفها،، يعشقه يقدسه، وزاد حبه له عندما عرفها، من أجل الحب تعشق الأسامي.. ينظر كثيرًا إلى هاتفه، كم تمنى أن يرد عليها ويحكي ما فيه ويطلب منها المساعدة؟ لكن العواقب لن تكون بسيطة!! فيأجل هذا الموعد والذي سيأتي عما قريب. إذا يغلق الهاتف ويصبر على ما هو عليه..

****

الحادية عشرة، اللحظة المنتظرة وإيمان تسير تخرج من بوابة الشركة ذاهبة إلى سيارتها والتي تركن أمام هذا المبنى الضخم، عائدة إلى أبيها.. يترقبها «ياسين» بخوفٍ شديدٍ ويلتقط أنفاسه سريعًا، ثم يحبسها كلها، يضع هذا القناع الأسود الذي دائمًا ما يستخدمه مجرمو المشاهد المؤثرة والمؤمرون بالسرقة أو القتل.. يسير مهتزًا محاولًا ترتيب خطواته لتتناسق مع خطواتها يخرج هذا السلاح الذي قد أجبر على حمله من قبل شخصٍ مجهولٍ يقوم بتعميره ثم تزداد رعشته فجأة... . يُمسِك «ياسين» أعصابه في النهاية ويتقدم رغمًا عنه.. يصل إليها وبدون تردد طلقتين في الظهر، منهم واحدة في صميم القلب، يكتم فمها بيده ويلقي

بها في سيارتها، وجهها أولًا ثم باقي الجسد ويغلق كل الأبواب.. يتأكد أن المكان آمن حوله ثم ينطلق ويتركها مع روحها التي تخرج فاقدة القدرة على الحركة أو الكلام.. دماؤها تسيل كأنه نهر قد شق مؤخرًا.. أما هو فقد رحل وهو يجري غير مصدق ما حدث أو ما يحدث..

تذهب في غيبوبة في شارع مهجور، لم يمشِ فيه في هذا الوقت إلا ذلك الشاب الثلاثيني، أبيض الوجه الذي لاحظ إيمان واستطاع أن يتملك نفسه من الفزع، وأبلغ الشرطة والإسعاف..

الثانية عشرة من مشفى النصر، تتنفس إيمان آخر أنفاسها، وصلت على متن سيارة إسعاف وصلت متأخرة، فقد فقدت الكثير من الدماء.. لا وجود لأحد بجانبها، لا أخ ولا سند، ليس لها إلا أبوها العجوز القدير، ولم يستطع إنقاذها جماعة من الأطباء والممرضون من حولها وفارقت الحياة بدماء بارد، لا ذنب يذكر لها..

تأتي مكالمة بعد هذا كله للأب الذي لم يعد لديه ما يخسره، فتخبره أن إيمان قد فارقت دنياه وأنه البقاء دائمًا لله، فيقف قلبه وينهار ويلحق بها متأثرًا بجلطة في القلب باكيًا على ابنته الوحيدة..

الواحدة ليلًا، يدخل ياسين بيته وهو يرتجف ويعرق ولا يستطيع التفوه بكلمة واحدة، يتخفى ويدخل إلى حجرته فيه

هدوء شديد وهو يرتعش من البرد ثم تأتي له رسالة أخرى..

«هكذا تتحقق العدالة»

لم أكن أعرف الدم:

الثانية بعد منتصف الليل، حجرة مظلمة وهدوء مخيف، عدد من الأثاث وكأنه ليس موجودًا، أرى كرسيًا ومنضدة وعددًا من أجهزة الحاسوب وأوراقًا وصورًا معلقة في كل مكان، يوجد لوح خشبي كبير ما يسمى بالسُبورة يكتب عليه بالطباشير، أرى على نور خافت جدًا بعض من الأسماء المكتوبة عليها والرسومات غير الدقيقة، وأسهم وخطط وكأنك في حجرة تتجمع فيها عصابة من عصابات المافيا أو جماعة من أذكياء الحاسب الآلي مخترقين حسابات البنوك، فاضحين الناس «الهاكرز»، يدخل شاب أرى أنه لا يتجاوز الثلاثين يلبس بنطالًا وقميصًا وعليه بالطو ثقيل، ذقنه خفيفة وشعره أيضًا لا يظهر عليه أي ملامح توحي لك بالعنف أو الفساد.. يشعرك أنه من المجتمعات الراقية، والغريب في الأمر أنه كذلك، يمسك ببعض الطباشير وبخط خفيف يشطب شطبًا خفيفًا على كلمة تكاد تكون اسمًا لك في هذا الظلام، والضوء غير الواضح إذا اقتربت قليلًا، تجد «إيمان عبد السميع»..

هل كانت إيمان ضحية لعملية إجرامية مخطط لها مسبقًا من قبل، شاب ذو مظهر وبشاشة، ولا يعرف له وجودًا.. ترى ماذا يريد؟؟!

هذا الشاب، كريم، يعمل في إحدى شركات الاستثمار والعقارات، هو المدير الإداري لهذه الشركة وليس مموله.. وصل إلى تلك المكانة بعد قصة كفاح عسيرة، طفولة قاسية ومراهقة شاقة وشباب تعلم فيه المثابرة، لم أكذب، عندما أخبرتك أنك إذا رأيته لا تشعر في مظهره بالشقاء والمعاناة بل هو الشاب المكافح ورجل الأعمال الناجح، لا يقل في الوسامة والمرونة شيئًا، لن يخطر ببالك أنه خطط ونفذ عملية قتل إذا رأيته يومًا ما..

تزوج منذ شهر أي أنه عريس جديد.. شخص مثله يبلغ الثامنة والعشرين من عمره، يقوم بالتخطيط؛ لقتل فتاة بريئة مثل إيمان ولكن لماذا؟؟!

الباب يطرق بشدة، إزعاج غير مناسب مع هذا الجو المخيف، يذهب؛ ليفتح وهو يعرف من هذا الطارق المزعج، يفكر كثيرًا في التخلص منه، لكنه لم يجرب القتل يومًا، أحيانًا ترغم نفسك بالواقع من أجل المال.. الثقة.. الانتقام.. لا أعرف! ....

القتل، لا يستطيع أن يفعل هذا بيده ولو لمرة، ولو استطاع لغرز سكين في صدر هذا المخلوق الممل المزعج الذي يدعى ب»سنارة»، لا يعرف من أطلق عليه هذا الاسم العجيب، يقول له إن تسميته بهذا يرجع لقدرته الكامنة في الصيد والقدرة على السرقة وصيد الأموال دون أن تشعر به.. قام بما يقارب أربعين عملية سرقة وسطو، ولم يره أحد أو أمسك به ضابط من

قبل، بل إن جهاز الشرطة لا يعرفونه وكأنه الشبح الذي يخطف منك دون أن تراه، كيف لهذا الإنسان المزعج أن يكون سنارة وخاطفًا دون أن تشعر به؟!

لقد تعرف على سنارة هذا منذ عام تقريبًا، قابله وهو ذاهب لاستكشاف عدد من العقارات والمخازن سيحتاجها عما قريب في عمله والتي تقع في إحدى المناطق العشوائية المزدحمة بالقرب من محافظة الجيزة.. هي الأماكن التي يسكن بها الفقر والعنف وبعض من الفساد.. جاءه سنارة هاربًا محاولًا الاختباء بتلك المخازن التي اعتقد عدم وجود أحد بها في ذلك الوقت، كان هاربًا من مجموعة رجال قد قام بالنصب عليهم مؤخرًا فأمسكوا به.. اقترب منه وقتها كريم الذي كان معه عدد من الرجال كافيين لحمايته، ووجده خلف أحد الجدران، حينما وصل إليه استسلم سنارة، ووقف وطلب العفو ولكن كريم طمأنه وأخبره أنه لن يؤذيه بل سيساعده ويحميه في موقفه هذا.. من اللحظة هذه وسنارة هو دراعه الأول الذي يطلقه للقيام بالمهام المعقدة التي تحتاج لتنفيذ سريع.. يريد أن يجبر أحدا على القيام بأمر ما يرسل له سنارة.. يريد رجالًا لعمل عاجلًا يطلب سنارة..

بقى سنارة هكذا إلا أن جاء اليوم الذي أخبره كريم بأنهم على مشارف عملية قتل، وأنه سيغتنم من وراء هذا القتل مكسبًا ومالًا كثيرًا. اندهش سنارة وقتها، وتردد من هذا الطلب الذي يطلبه كريم، هو لم يطلب منه هذا من قبل بل لم يطلب منه

حتى السرقة! كان مجرد رجل من رجاله له مهامه الخاصة!! أخبره سنارة أنه لا يقتل بالرغم من كل عمليات السطو والنصب في حياته فإنه لا يعرف للدماء سبيلًا، فكان الاتفاق على الوصول لشخص ما يقوم بهذا وينفذه! شخص ضعيف، شخص يقع جاثيًا على ركبتيه أمام خطر التهديد!

لم يكن هذا هو اليوم الأول الذي يتقابلوا فيه بل لقد اجتمعوا منذ ثلاثة أيام في هذا المكان المخيف للاتفاق على آخر التفاصيل، ووضع آخر البصمات للعملية.. كانت الخطة كالتالي: يرسلوا ياسين الشخص الذي وكلوه للقيام بهذا بعد بحث طويل حتى عثروا عليه وهددوه بما عرفوا من ماضيه وأنه إما عليه الطاعة أو ما لا يرضاه، سيفضح ويحاكم وينتهي!! له الاختيار.. يذهب سنارة بعدها لسرقة الشركة التي لم يعد فيها أحد بعد خروج إيمان ثم يرحل.. أما كريم فكان المراقب عن بعد المتحكم في كل هذا، هو العقل الذي يدير، ترك مع سنارة جهاز تتبع وهاتف صغير حتى يكون على صلة به، ويخبره بالأحداث، ويحركه كما حرك ياسين، كالدمى في يديه! لماذا يا ترى يفعل هذا كله؟! ما هي دوافعه؟!

يدخل سنارة في ضجة وفي يده زجاجة من الخمر يتمرجح وهو يسير فدائمًا ما يصل إلى أعلى درجات السكر كل يوم، حذره كريم أكثر من مرة من هذه الأصوات المزعجة في هذه الأوقات المتأخرة، من الممكن أن يلفت الأنظار إليهم، ولكن

لا جديد، لن يتغير سنارة هذا.. رجل أبله ونهايته حتمًا مريبة..

– أنا مش قولتلك متخبطش على الباب كدة وتبطل الإزعاج ده. هتفضحنا!

– سنارة مينفضحش ياكبير، سنارة على طول شبح، يعني مستخبي.

– والله آخرتها هتودينا في داهية!

– وأفضحك ليه بس يا أستاذ كريم، دا أنت مشاء الله مفيش حاجة تتمسك عليك، وممشي الواد الغلبان إللي اسمه ياسين ده هو إللي بينفذ كل حاجة، أنا مش عارف الواد ده بيبان عليه محترم، هو مش بيخاف؟؟!!

– غريبة يا سنارة ده حتى أنت إللي دلتني عليه!

– يا باشا مصلحة وجت لعندي ! أقولها لأ!!

– مصلحة إيه! عشان عرفت سر عنه، ماسك عليه ذلة خلاص بقى مصلحة؟! هو إللي غبي!

– بس متقولش أي سر، سر هيخسره كتير.

– يقوم يقتل؟!

سؤال ينم عن تردد صاحبه وعدم ثقته، كيف تأمن لمن لا تعرفه!!! ولماذا تأمن؟؟! أنت فقط ترمي الطعم وتنتظر.. أنت لا ترى ولا تنكشف، فلما هذا الخوف!!

هل السبب أمر ما بداخله، لا يعلمه إلا نفسه حتى لا يقدر على النطق به؟؟!!

– يقتل يا باشا، تهديد وبعديها فلوس تخليه يقتل...

هل يقع الإنسان بتلك السهولة تحت ما يسمى التهديد!! هل يصل به التهديد إلى القتل!!

– المهم، دخلت خدت إللي أنت عاوزه؟

– آه يا باشا بس فيه حاجة غريبة!

– كان فيه وأنا ماشي ورقة مكتوب عليها اسمك، مش «كريم محمد الشرقاوي» برده؟!

– فين الورقة ديه معاك! ؟

– أكيد يا كبير معايا بس كله بتمنه.

بالرغم من كل ما يأخذه وما سرقه في حياته، فإنه لا يشبع، لا يرتوي، لو وجد جنيهًا واحدًا، لن يتركه، هذا هو سنارة..

يخرج كريم من جيبه دفتر شيكات، يقلب الدفتر ثم يخرج قلمًا من جيبه الآخر، وينزع عنه الغطاء العلوي بقوة، ويبدأ في توقيع ألفين جنيه كاملتين ثم يعطي الورقة الموقعة لسنارة الذي يتناولها بابتسامة لئيمة، عندما يكون الابتزاز قاتلًا!

يعرف كريم أنه بحاجة لهذه الورقة، أولًا الفضول الذي يتملكه

والسؤال الذي يعصف عقله «كيف عرفني محمد عبد السميع قبل موته ولماذا احتفظ بورقتي؟»، ثانيًا الخوف، هذا المرض اللعين الذي أصابه منذ أن قرر خوض هذه اللعبة السخيفة المدمرة!!

فتح الورقة بحماس شديد وغضب ملحوظ، وقرأ ما فيها وإذا بصورته واسمه أسفلها، وعبارة كبيرة تمعنها جيدًا، فسار الإدرينالين في دمه، إنها جملته!!

«هكذا تتحقق العدالة»..

ألم:

التاسعة صباحًا، أي أنه صباح يوم جديد، يتجدد فيه الألم، ولكنه هادئ في مكانه خف عن الوجع والألم، رعشته توقفت والبرد الذي يشتد عليه قد تحول إلى بعض من الحرارة التي تمثلت في أشعة صباح الشمس مع هذا اليوم الجديد، هي الهدنة، ولكنها تستمر لثواني أو دقائق، أكثرها ساعات.. هذا فقط لأنه استطاع أن يتغلب على هواجسه ومخاوفه لينام ساعات قليلة تغنيه عن كل هذا ولو لوقت ضئيل جدًا، بماذا يا ترى يحلم؟

هل تراوده الأحلام وسط كل هذا الزحام! هل يكافئه ربه ببعض من خيالات العقل وقت درجات النوم المختلفة!!

هل تقضي الكوابيس على حالة الهدوء التي وصل إليها؟ أم

تراوده الأماني في تغيير المستقبل القريب؟!!

كيف استطاع أن يمسك بهذا السلاح الذي كان يراه فقط في أفلام كل أسبوع، وهو نائم؟! في يده بعض من نقائق الفشار، ويستمتع بالمشاهدة.. الآن يملك سلاحًا ويقتل!! كيف فعل هذا بل كيف فكر في فعل هذا!! هل ما فعله في الماضي قادر على إرغامه بالقتل في الحاضر؟؟!!

أيًا يكون،، قطع كل هذا صوت هاتفه وهو يهتز ويصدر صوتًا مرات ومرات؛ ليفتح عينيه أو نقول عين واحدة؛ لينظر عن كثب ويرى من الذي أعاده إلى عالم المصائب هذا؟! من الذي فرض عليه الواقع مرة أخرى؟! ومن الذي أقنعه بعد مدة قليلة أن ما كان فيه مجرد حلم مهما كان فالواقع أسوأ.. به أو بغيره سيعود للواقع.. لا مفر..

إنها مريم، واحدة من أهم الأسباب التي جعلته يعاني في هذه الحياة بعد أن جعلته يبتسم فيها، هي فقط التي خسارتها تكون عنده بالموت البطيء، هذا النوع من القتل الذي يجعله يتنفس، ولكنه يتمنى لو أن يقطع هذا النفَس لأجل بعيد أو قل للنهاية! هي التي يوم عرفها أقسم أنه سيكون لها مخلصًا خالصًا محبًا مقدسًا، وسيفعل المستحيل من أجل بقاء هذا العشق إلا أن يحين موت أحدهما، ويتذكر أنه قد دعى ربه في خلوته قائلًا: «رب اجعل يومي قبل يومها، فإني لا أتحمل ألم فراقها، رب

استجب فهي الحياة»... هي الحياة!! !! أصبحت عنده بمنزلة حياة!

أين هو من مريم الآن وأين هو من ربه الآن! أين هو من الحياة نفسها!!

عرف مريم منذ حوالي خمسة أعوام، كان في السنة الثالثة من الجامعة، وهي في الثانية، أحبها بشدة منذ ذلك اليوم، لم يتذكر أنه أحب أحدًا مثلها، بالرغم من إعجاب الكثيرات به وإعجابه هو الآخر بالكثير من الفتيات في سنواته السابقة، أيام مراهقته وشبابه الأولى.. كانت مريم مختلفة تمامًا، لم يذق الحب، ولم يعرف معناه إلا معها ولم يتذوق حلاوة دقات الساعة إلا وهو بجانبها، بل كان ينتظر بفارغ الصبر أوقات حديثها، وما أن أخذ شهادة البكالريوس وتخرج بعد السنة الخامسة، هي الأخرى تخرجت معه بعد سنتها الرابعة، بعدما حصلت على شهادتها، حتى ذهب إلى أبيه، وطلب منه الذهاب لخطبة تلك التي نفخت في حياته دخانًا يحمل معاني لم يعرفها من قبل، لم تنس هي الأخرى ذلك اليوم بعد أن قرأوا الفاتحة، كان واحدًا من أسعد أيام حياتها بعد أن عاشت قصة حب انتهت بالفاتحة ثم الخطوبة ويترقبوا الآن معًا الزفاف!

أي زواج وهو في حالته تلك ويجري حوله كل هذه الأحداث؟؟! بل أية مريم؟!

تمنى كثيرًا أن يسجد ويغمض ثم يدعي ربه للفجر أو إلى أن يقع مغشيًا عليه من كثرة الدعاء. يتضرع إلى خالقه أن يفرج عنه تلك الأيام وينقذه منها، الأيام التي لم يتخيل لحظة أنه من الممكن أن يعيش فيها ويبحر في عالمها الذي لم يسمع عنه إلا في الأفلام والحكايات، ولكن لا جدوى.

يختار أن يرد عليها وقد تعود الاختيار المكروه، ودائمًا ما يصحبه الندم، ولكن كما قلنا لا جدوى!!!!!!

يضع هاتفه على أذنيه ويستعد لاستقبال ألم جديد، ويسمع «ياسين».....

وقف سريان الدم عنده للحظات ووقفت حواسه وشلَّ من قدميه إلى رأسه حين سمع اسمه يخرج منها مع سماع صوتها ويدخل إلى أذنيه متجسدًا في نبرتها، لم تستجب دموعه المحبوسة لكل هذا الشلل تركته في شلله ونزلت تجري كأنها طائر انفتحت له أبواب القفص بعد حبس دام سنوات. كم أحب أن تناديه باسمه، وتقول له «ياسين»، هذا النداء الذي يشعره بأنه ملكها وهي ملكته تناديه بنبرة خفيفة تخرج منها من صميم قلبها دون أن تتلاعب فيها أو أن تغيرها يعشق نبرتها وصوتها في «ياسين» وكل كلمة تناديه بها، لقد أحب اسمه يومًا بسببها!

عندما يجعلك الحب تعشق نفسك!

«مريم»

هذا كل ما استطاع لسانه أن يبوح به وصمت...

– لسة فاكر مريم! إنت فين كل ده يا ياسين؟!

– معلش والله يا مريم غصب عني، كنت مشغول!

– مشغول لدرجة إني أكلمك ومتردش حتى تقولي إنك كويس وبخير وتقفل؟

– معلش حقك عليا، أنا بس تعبان شوية.

تكثر حججه التي اعتاد رصها في كل مرة تشتكي له، انتظر ردها الذي توقعه منفعلًا، فهبت قائلة..

– تعبان أو مشغول! أنت متغير يا ياسين!!

– مفيش حاجة والله شغل تقيل بس اليومين دول وبرد وشتاء!

– لا، أنا أعرفك من خمس سنين عمري ما شفتك بتقول برد ولا شغل، على طول بتحكي وتقول إيه من غير حتى ما أنا أقول لكن دلوقتي اتغيرت!

يبعد السماعة من على أذنيه ثواني حتى يتمالك أعصابه ويفكر في الرد القادم عليها، وكيف يجعلها تصدقه، عاد مرة أخرى لها قائلًا..

– زي ما قولتي لو فيا حاجة هقولك بس والله ما فيه تعب بس شوية مشاكل هتحسن..

– بيقولوا الحب والاهتمام بيقل بعد الجواز، أنا بدأ يقل في فترة الخطوبة أنا نحس!

– لا دلوقتي ولا قبل كدة ولا بعد الجواز عمره ما هيقل بل بالعكس هيفضل يزيد.

– آه كلمتان حلوين والهانم تتسبت وخلاص!

– هو أنا عمري ضحكت عليكي يا مريم؟

– على طول بتضحك عليا يا ياسين.....، مالك يا حبيبي؟

تزداد الدموع والرجفة والاضطراب والخنقة مع كل نداء ونبرة وكلمة تخرج منها تتبعها إحساس بالذنب يخرج منه، والله يتمنى أن يصرخ ويخبرها بكل شيء وينهي كل هذا، ولكنه يعلم أنه ينهي نفسه وحياته وحبيبته..

– والله يا حبيبتي مفيش، أنا هبقى كويس! هتشوفي بنفسك..

– خلاص مصدقاك، بكرة معدنا؟

– آه طبعًا فاكر..

– هتعمل إيه طب انهاردة؟

– هقابل مالك كنت متفق معاه من إمبارح!

– خلاص ماشي طمني!

– حاضر، سلام

– سلام.

أغلق معها، لم تغير هذه المكالمة شيئًا قديمًا ولم تعطِ أي جديد بل زادت الأمر تعقيدًا عليه.. ثم تذكر أنه حتى نسى أن يسألها ماذا ستفعل في يومها كما سألته، لقد ظلمها مؤخرًا، كيف فعل هذا بها!! يومًا ما ستعرف الحقيقة!! لقد فعل هذا بمن عشقها يومًا، ولم ولن يحب غيرها!!

ولكن هو الواقع!

واقع العدالة....

بحث مستمر: الثلاثاء ١٣ فبراير

الحادية عشرة ظهرًا، ضجة في كل مكان والأصوات عالية، أناس يتهامسون وسيارات تنطلق معها مزامير أصواتها صاخبة، اللعنة على الزحام والمرور.. كل هذا يتكرر كل صباح، أصوات الأولاد في المدارس المجاورة شديد والعمال يقومون بأعمال البناء وكل مشغول في حاله..

أرى سيدة تأخذ بناتها في يدها حريصة على الوصول بهن إلى مدرستهن سالمات، وأرى السائق يرفع يده مشاورًا ببعض

الحركات المتفق عليها بين الناس، فيحمل معه الركاب.. هناك على بعد عربة بحمار تحمل الفاكهة وينادي صاحبها بالسعر، ويقف للبيع إذا طلب منه وأمله على الرزاق..

الضوضاء.. الشمس.. الضجة.. الصيحات.. الناس.. الشوارع.. المرور.. إنه الصباح يا سادة!!

هذا كان الحالة بالقرب من مبنى مديرية أمن القاهرة وقت دخول المبنى أحد ضباط المباحث، خطوات ثابتة، بدلة فخمة ونظارة شمس تعطيك رهبة، وتحدثك عن مكانة هذا الشخص وعن قوة هذا المكان..

– محمد باشا رضوان على الباب يا فندم.

– آه طبعًا، قل له يتفضل..

مقدم محمد السيد رضوان.. دفعة ١٩٩٧. عدد من السنوات والخدمة كافية لتحكي عن أحد أشرف وأكفأ ضباط الداخلية في وقتنا الحالي، رجل يتحدث الجميع عن عدله وقوته في الحق ونظافة يده، لم يدخل بيته الحرام ولم يأخذ مالًا غير حقه، إن سار في طريق ما، سار معه الحق والعدل، كلمته كلمة رجل لا تتبدل ولا تتغير، ورغم كل هذا يعرف الرحمة ويرى أن محور النجاح في هذه الحياة هو فترة الشباب، ليحترم الشباب وينظر فيهم بنظرة بعيدة، تصل إلى أقصى درجات النجاح. كان يسعى لقضايا الشباب ويسعى لحلها.. لم يرزقه الله بالولد، فعاش راضيًا

مقتنعًا بقسمة الله في هذه الحياة..

يضع نظارته على المنضدة أمامه، ويبتسم لحظة دخوله، كان يرتدي بدلة رمادية اللون، تجعله عريض البنية إلى جانب أنه طويل القامة، عندما تكون الهيبة رمزك الأول والأخير...

– أيمن باشا، أهلًا وسهلًا.

أيمن حسن السيد عقيد شرطة.. لا تعرف كيف وصل إلى تلك المكانة، فهو الآن أحد المديرين في هذا الجهاز الأمني الخطير، وهو بالفعل رئيس محمد رضوان.. ليس برئيسه فقط بل قدره الأسود، فبالرغم من أنه يكبره في هذا العمل بثلاثة أعوام إلا أن مشاعر الكره والمقت التي يحملها نحوه ليست بالقليلة.. يعرف جيدًا جده وتفانيه في العمل وحب المديرين وكبيري الجهاز له، والدليل على ذلك أنهم دائمًا ما يوكلوه المهام الأصعب والقضايا الأخطر.. يعرف محمد رضوان كل هذا جيدًا، فقرر أن يلجأ معه إلى تعامل خاص.. إلى مبدأ اعتزل ما يؤذيك..

عندما تكون الغيرة حياتك يوم ولدت إلا أن تموت.. عندما تكون صفة خالصة فيك..

– محمد بيه قهوة لمعاليك زيادة يا باشا؟

– تمام يا باشا هي القهوة بتعتي.

– قهوة زيادة يا بني لمحمد باشا.. أخبار معاليك إيه؟

– فضل ونعمة الحمد لله، هيكون ورانا إيه مشاكل أهم وأصعب من الشغل!

جملة فكاهية تخرج منه كعادته، وكل من قال لهم هذه الجملة يعلمون أنه رجل يعشق العمل ولا يقدر على الاستمرار عدة أيام دون أن يعمل، تعود على هذا منذ زمن، حتى وإن كان هذا العمل يأخذه من الحياة وضروبها وزحامها، ولكن كل منا ما يأخذه لعالم آخر وينسيه عالم البشر..

– على رأيك والله يا باشا، خلاص تعبنا!

– الحمد لله يا أيمن باشا، كله بثوابه، إيه الجديد؟

– مفيش يا باشا، قضية قتل جديدة، المجني عليها اسمها إيمان عبد السميع بنت الأستاذ محمد عبد السميع صاحب شركة أدوية كبيرة لقوها في عربيتها جثة غرقانة في دمها، والغريب إن خزنة الشركة الرئيسية مسروقة تقريبًا في نفس اللحظة..

– ديه عصابة بقى، سرقة وقتل في نفس الوقت»..

قالها محمد رضوان يعود ويسند ظهره للوراء مبتسمًا لأيمن باشا، وكأنه وجد فرصة جديدة وقضية يسعى وراءها، تشبع رغبته الشديدة كضابط مباحث محب لعمله بدرجة كبيرة، أتبعه أيمن باشا قائلًا..

– الغريبة إن إللي سرق سرق الفلوس بس وساب كل الورق المهم.

– قصدك، إنهم مش مسكين حاجة على حد وبسيتيذوه بيها!

– بالضبط، سرقة وقتل ومحدش يعرف غرض ده ولا ده.

– سيبها على الله يا باشا الأيام هتعرفنا.

إليك صديقي

الثالثة عصرًا، بدأ البرد يزداد مع غروب الشمس، الأمر الذي يخبرك بقدوم الليل وكم كانت الليالي رائعة، عندما يجتمع مع مالك في بيت أحدهما يتناقشان معًا في كل أمر قد حدث لأحد منهما قريبًا، شابان في منتصف العشرينات من عمرهما يتسامران ويطبخان معًا ويأكلان في شرفة صغيرة تطل على شارع رئيس كبير، تجري فيه السيارات ليلًا دون توقف وترتفع على جانبيه عواميد من الحديد وجمالونات، صممت لتحمل الإعلانات الضخمة والأضواء الشديدة المنيرة للسيارات المارة ليلًا، يضحكان إن كان الحديث فيه شيئًا من المرح والاستهزاء وكم كان الحديث مرحًا بينهم وكم كان الضحك يعلو؛ ليسمع السكان المجاورون لهم فيحسدونهم على فرحة لم تدم طويلًا، لا ينسى أبدًا مالك عندما حكى له ياسين عن الفتاة التي أرسلت له عبر «فيسبوك» تريد أن تقابله وكيف تحدث معها ليستدرجها وعندما اتفق معها على ميعاد المقابلة، لم يذهب لمقابلتها وعندما اتصلت به أخبرها أنه حلم بها وقد مرضت بمرض لعين يقضي

عليها إذا رأته فخشى عليها فلم يأتِ لمقابلتها، لم ينسَ مالك قط كيف انفجروا في الضحك معًا عند سماع تلك القصة، ولم ينسَ ياسين حين حكى له مالك أن الدكتور أستاذه في الجامعة، والذي كان يكره الطلاب وكانت تصل نسبة الرسوب كل عام في هذه المادة ٦٠٪ وهي نسبة كبيرة إلا أن جاء اليوم الذي وضع فيه هذا الدكتور امتحان الميدترم، ولم يحضر هذا الامتحان أي طالب، وعندما سأل العميد عن السبب، أخبره أنه قد تم رفده من أسبوع وقد زادت شكاوى الطلاب منه ونظرًا لهذا عُيِن أستاذ بدلًا منه. المضحك في الأمر هذا كله هي نتائج الامتحان السابق، فقد أقسم واحد من أوائل الدفعة أنه قد حل الامتحان مثلما حله الدكتور في المحاضرة تمامًا بعد انعقاد الامتحان بأسبوع وأن خطواته مثل خطوات ذلك المجنون، وقد حصل على ٤٥٪ من درجة المادة، أما مالك والذي لم يجب إلا عن سؤالين فقط من أصل ستة أسئلة فقد حصل هو الآخر على ٤٥٪، لا ينسى ذلك اليوم الذي عرف بين أصدقائه ب»البكس» واللئيم فقد حصل على أعلى درجة رسوب بين زملائه. وأيضًا لا ينسى عندما حكى هذا لياسين وضحكا معًا، الأيام لا تعود والصحبة تغيرت والأوقات أصبحت صعبة، ولم يعد شيء كما كان يومًا.

تشاركوا الكثير من الأسرار، لقد تقابلوا في المرحلة الأخيرة من المدرسة الإعدادية ومن يومها وهم جنب إلى جنب، ماذا تخفي لهم الحياة القادمة؟!

يرن جرس الباب وهو يسمع آذان المغرب، ويردد معه، ما زال مؤمنًا بربه موحدًا به حتى وإن انقلبت عليه الأيام، يفتح له مالك فيحتضنه ياسين بشدة، عناق يفصح عن ألم قد تجاوز كل الحدود..

– ادخل يا صاحبي ده بيتك.

كان مالك يقيم في بيته تلك الليلة بمفرده، فلن تعود أمه من عند أقاربها إلا في الصباح، أو وقت العصر..

– أعمل إيه يا مالك؟!

نبرة ياسين المستسلمة، وصوته المخنوق جعل مالك ينتبه إليه، فسار نحوه..

– مالك بس؟ وصلت لإيه؟

– تعبت يا مالك، عمري ما اتصورت أكون مجرم في يوم ويبدأ البوليس يدور عليًا وعمري ما اتخيلت إني استقبل رسايل من حد يهددني ويأمرني بالقتل، ولا تخيلت إني فكرت في حتى أمسك سلاح!!

كانت تلك المرة الأولى التي يبوح فيها ما بداخله مع مالك،، عندما تجد مخرجًا تصب فيها ما بداخلك.. أسرع مالك لإسكاته عندما شعر بحجم صوته المرتفع، فحذره قائلًا..

– وطِي صوتك يا ياسين، ماتزودش الطين بلَة مش ناقصة، هتتحل، اهدأ!

– تتحل إزاي! وأنا مش عارف أقول إيه لمريم يوم بعد يوم وأنا مش عارف أرد عليها! أقول إيه لأكتر إنسان في الدنيا وثقت فيه ووثق فيَّا!؟ وأنا حتى مش عارف أكلمها في نفس الوقت إللي وحشتني فيه ونفسي أقول كل حاجة وأعرفها كل الحقيقة وخايف عشان عارف أني بعدها مش هشوفها تاني!

لم ينتظره مالك حتى ينتهي، فأسرع قائلًا..

– اوعى تعمل كدة يا صاحبي عمرها ما هتصدقك تاني وهتجرحها جامد! ، متقولش حاجة، كل حاجة هتتحل، هتتحل يا ياسين زي ما اتحلت زمان!

– يا أخي كرهت زمان، مكنش زمانه ده بقى حالنا، كرهت النقطة السودة إللي في حياتي إللي اتحولت لاستغلال وتهديد وذل!

– وبابا إللي عنده القلب أصلًا، متخيل لما يعرف إيه إللي ممكن يحصل، إيه إللي هيحصل لأختي؟!

قالها ياسين وهو يكمل حكاية آلامه التي أصبحت لا تنتهي..

– اهدى يا ياسين وكل حاجة هتتصلح، صدقني هنطلع بأقل خساير!

– مبقتش عايز أطلع كسبان ولا خسران، بقيت عايز أخلص، حتى لو هموت.

– بعد الشر يا صاحبي، صدقني هتعدي!

– فين البتاع إللي إنت قولتلي إن واحد من معارفك ادهولك؟

– بتاع إيه؟؟ إنت مجنون يا ياسين؟؟

– مالك، انجز، أنا بقيت أتمني الجنون أحسن من العقل إللي هيدمرني ده!

– بس اهدأ مينفعش إنت لا متعود عليه ولا مجربه!

– انجز يا مالك لاروح أشتريه من برة وما هتعرف عنِّ حاجة تاني!

يرفع صوته مضطربًا مختنقًا، يكره كل ما حوله، «انجز يا مالك»

لم يجد مالك مفرًا منه في حالته تلك فاستسلم لأمره قائلًا..

– حاضر، خلاص اهدى، امسك.

يمسك بالسيجارة غريبة الشكل والرائحة ونيران خفيفة قد اشتعلت من ولاعة مالك أعز أصدقائه، ووضع لأول مرة على شفتيه سيجارة ويدخل لأول مرة

قفصه الصدري دخانًا، لم يتذوق هذا الطعم من قبل، وعندما تذوقه تذوق «الحشيش»

أقبل مالك على تدخين الحشيش منذ فترة، في بداية الأمر، لم يكن ياسين يعلم!! بالرغم من كل الأسرار والأحداث التي يعرفونها عن بعضهم البعض، لكن أصبح مالك في الآونة الأخيرة غريب الأطوار، سلوكه وعلاقته بصديقه لم تعد كما كانت بل أن سلوكه أصبح مختلفًا مع الناس كلها.. أقبل على الحشيش وأحيانًا الخمر حتى لاحظ ياسين وزجره بشدة، وصل الأمر إلى أن ضربه لحظة سكره، وهجره لأيام طويلة، شعر حينها مالك بالذنب الكبير ويحلف أنه سيقلع عن كل هذا ثم يعود مرة أخرى، إنها سها، الفتاة التي أحبها بشدة، ماتت منذ عام وتركت هذا المسكين يعوي في أرض الهلاك وحده!

الآن انقلب الحال، ياسين هو من يطلب ومالك يمنعه! ياسين هو من يرغب في التدمير، هو من يرغب في الخلاص، في الموت..

أغمض عينيه وطار بعقله مدة قصيرة، بعد أن أخذ نفسًا تلو الآخر، كيف قتل إيمان! كيف أخذه القدر إلى كل هذا!! يسأل نفسه مرة أخرى، كيف؟؟!

رحل مالك عنه يبكي، لم يقدر على رؤية صديقه هكذا، وقد تحطم، تذكر حينها سها كانت صديقة ياسين، عرفها منه وأحبها، وهي الآن رحلت، هل يترك صديقه يرحل هو الآخر بعيدًا عنه!!

أشعل هو الآخر سيجارة واستلقى على سريره وغاب..

توتر متوقع:

اقتربت الشمس من الغروب؛ لتسدل الستار أخيرًا عن نهار هذا اليوم المخيف، يعود سنارة في طريقه لبيته المتواضع في إحدى الأحياء الشعبية القديمة، تشعر في هذه الأماكن أن الكل هنا يعرف بعضه وكأنك في بيت واحد، ولكنه كبير بعض الشيء، اجتمعت فيه عدد من الأسر في آن واحد، يرفع يده لعم محمد العطار والذي يقع دكانه على أول ناصية الشارع الذي ينتهي عند بيته، يشير مبتسمًا لأحد المارين ويحييه، أحيانًا هنا تجد من يحيك ويبتسم لك وتتساءل من أين عرفني وهل أعرفه؟! ولكن هو مبدأ الأسر، تجمعهم رابطة واحدة لا تدري كيف، يكمل سيره، فيوقفه أحدهم..

– إيه يا سنارة، فين الفلوس إللي عليك؟!

– قولتلك الأسبوع الجاي يا مايكل وابعد دلوقتي مش فايقلك!!

مايكل، شريك لسنارة في العملية الأخيرة، ينفي سنارة دوره في العملية، فلم يفعل غير أن دله على المكان والوقت والباقي على سنارة ويطلب الآن منه المال! سرقة ثم طمع! تبًا لتلك الحياة!!

يصل أخيرًا للعمارة التي يسكن بها، عبارة عن أربعة أدوار، يقف أمام محل بقالة يوجد في الدور الأرضي وينادي على عم زغلول صاحب هذا المكان القديم...

– مساء الخير يا عم زغلول.

– مساء الفل يا سنارة يابني، خد ديه لملك..

ناوله قطعة حلوى لصغيرته، الكل يعرف هنا قصة ملك ابنته، هو الذي رباها منذ صغرها وتكفل بها..

– شكرًا يا راجل يا طيب..

وصل أخيرًا إلى البيت، استعد كالمعتاد لاستقبال ملك، النقطة البيضاء في حياته وسط هذا السواد الذي يعيش فيه، وسط هذه الدنيا الفاسدة والأموال المسروقة والأعمال المشبوهة، توجد ملك، في ظل وجودها يشعر بالخوف، يشعر بالذنب، ويشعر بالخذلان أمامها، ملك.. بنت يتيمة، أخذها من شقة قديمة منذ حوالي عشر سنوات، كانت تبكي ولم تكمل حتى عامين ويتذكر جيدًا كم كانت خائفة وكم رق قلب هذا المجرم الذي يكمن بداخله، وأخذها ورباها وعلمها وأحبها وأعطاها الحنان، وكأنه وضع فيها الأب الذي لم يحظ به في حياته، فلا زوج ولا ولد له كلمة «بابا» التي يسمعها منها... تلك الكلمة التي تدخل كل أنواع السرور لقلبه، ولكنها في نفس الوقت تقتله، عندما يعرف أنها ليست من صلبه وليست ملكه، لكنه راضٌ.. مسألة أيام وليالي، ويجب أن تعرف تلك المسكينة حكايتها والتي طالما احتفظ بها، ولم يبدها لأحد وكتمها عن الجميع، ليس هذا فقط بل أقسم أنه سيتكفلها ويصرف عليها ما بقى حيًا ولا يكشف

لها سره الإجرامي، وسيحاول دائمًا أن يكون شريفًا كريمًا متأنيًا أمامها وفي نظرها وقد أخبرها أنه تاجر ومندوب يوصل الطلبات وبقضي الحاجات.. خطط لهذا وتمناه كما تمنى أن تتزوج شخصًا طيبًا مثلها، وأن تحيا بسلام، الحياة الكريمة التي لم يهنأ هو بها..

دخل بكل هدوء، وضع المفاتيح على الطاولة جانبه وأخفى الحلوى وراء ظهره وبدأ ينادي بصوت مداعب..

– ملوكة، أنا جيت، إنتي فين!

خرجت تجري مسرعة نحوه كباقي بنات سنها اللاتي يسرعون نحو الأب عند رجوعه من العمل واحتضانه.. أخذها هو الآخر بين أحضانه وقبلها..

– ها، عملتي إيه في المدرسة النهاردة؟!

– مفيش، سمعت الدرس للفصل كله والمستر اداني الدرجة النهائية..

– وديه هدية بابا لملك!

أخرج بعد عبارته تلك الحلوى وأعطاها لها، أخذتها بلهفة وفرحة معتادة ثم قبلته على جبينه، وجرت أمامه.. عاد لعقله مرة أخرى، وفكر، ما الذي سوف يحدث إن عرفت كامل حقيقته؟؟!!

****

في أحد شوارع القاهرة.. يمشي كريم وقد أصابه الجنون والتساؤلات الكثيرة.. لقد أخذت تلك الورقة التي وجدها سنارة في مكتب إيمان كل تفكيره وتساؤلاته الأخيرة.. لم يجد أحدًا يشك فيه إلا هذا الأبله المزعج سنارة!! كيف لسنارة أن يفعل به هذا وما دوافعه!! ما الذي يدفعه إلا الاستهانة به والضحك عليه واللعب معه تلك اللعبة السخيفة؟! المال!! إنها الإجابة الوحيدة على كل هذا.. ما الذي يدفع هذا الكائن غير المال، ولكن لماذا!! لقد سرق الليلة الماضية الكثير من المال، لقد سرق الخزنة كلها،، لا يريد كريم من هذه السرقة مليم واحد.. كله ذهب لسنارة، فلماذا فعل هذا به!! هل الطمع؟؟! ولكن كيف؟؟!

لم ينقص هذا التفكير من شعور الارتياب الذي لحق به، بل زاد عليه الغضب والتفكير، صداع يدغدغ رأسه يكاد يقضي عليه، يخرج من جيبه برشام مهدئ، ويبتلع واحدة، المسكنات والمهدئات، العلاج المؤقت.. مهما كان سيظل مؤقتًا!!

بضع دقائق ويتصل بزوجته وكأن مهدئه الحقيقي هو اسم واحدة وكلمة واحدة «سارة»...

سارة.. بالرغم من كون طفولته قاسية ومراهقته أشق وأقسى، إلا أن سارة عوضت هذا كله، عندما عرفها منذ سنتين، عوضت عمره المفقود وأسراره الدفينة..

– أهلًا أهلًا، الباشا فين؟

ترد بخفتها المعتادة التي يرتاح لها قلبه، فيكمل معها الحديث قائلًا..

– الباشا جي في الطريق.

– الباشا يحب ياكل إيه؟!

– الباشا يحب ياكلك.

– لم نفسك وقول، تحب تاكل إيه؟؟

– نقول مثلًا مكرونة بشاميل ومعاها.....

– ورق عنب

– عرفتي منين؟؟

– أصل الاثنين في الفرن وعلى النار!

– أنتي بتكلمي بجد! ؟

بالرغم من كل ما يخبئه عليها ويخفيه، بالرغم من كل ما يوجد في عالمه الفاسد الآخر، فإنها تسعده، تعرف كيف تغير حالته، انتظرها حتى ردت عليه بضحكتها وهو يسمعها..

– يا حبيبي أنا قبل الجواز كنت بحس بقلبك بعده بقيت بحس ببطنك؟!

– ربنا يخليكي ليا يا سارة! والله بحبك.

– نعم!! صنية مكرونة وورق عنب قصادهم بحبك؟، أعمل إيه ببحبك ديه، عدي هتلي هدية وأنت جاي لو حابب تاكل!

– وأنا موافق! عايزة إيه هدية؟؟

– تيجي بسرعة عشان وحشتني!

– يا بنتي هو لازم تكسبيني كل مرة في الكلام!

– انجز عشان الأكل ميبردش! سلام

– سلام.

لم يقف النزيف قط:

الثامنة في بدايات الليل، وبرد الشتاء يأتي بما عنده مع بداية هذا التوقيت، الجو ليس بالعاصف الشديد بل الخفيف الهين مع ريح باردة تنتقل بين النفوس.

يفتح ياسين عينه بهدوء، لا يرى إلا تشويشًا.. ومن ظلام خفيف إلى نور أخف، لم يستطع فتح عينيه كاملتين بل استكفى بهذا النور الباهت؛ ليحاول الوقوف ساندًا على كرسي مكتب صديق عمره مالك، ينظر من حوله ليستعيد ذاكرته، ويفكر جيدًا، فيجد مالك مستلقيًا بجانبه على سريره، وقد ذهب إلى

نوم عميق، كم كان تأثير تلك السيجارة قويًا في مالك؟

ألم يشعر بذلك التأثير؟ أم النوع الذي أخذه ياسين مختلف؟؟! أم أنه فقد الشعور بهذه الأشياء، بالرغم من أنه لم يجربها قط! هل توقف شعوره بكل ما حوله!!

لم تكن تلك الليلة الأولى التي يتشاركان في السهر والسمر وحتى الضحك والغناء، لكنها ليلة مختلفة.. مختلفة بكل تفاصيلها ومجرياتها.. أما الليالي السابقة، فكانت مليئة بالأنس والبشاشة والمزاح.. كان الحديث يسير سيره نحو الجد كثيرًا، لكنه لين على قلبيهما وهادف لمستقبليهما.. لم يظنا يومًا أن الحياة ستنتقل بهما إلى ذلك السواد القاتم، وأن المستقبل سيصبح كالثقب الأسود والذي دخلت أليه فلا عودة ولا خروج.. لم يتخيلا أيضًا أن يكون الحشيش والمخدرات هما المسيطران على جلستهما وأن يصبحا كالمدمنين وقت الإيقاظ.. توالت الإجابات تدوي والسؤال واحد.. «ما الذي يحدث؟» كل هذا لا يهم، المهم هو الوصول إلى الباب في تلك الشقة الخالية التي يرى معالمها بصعوبة بالغة، يصل إلى الباب وقبل هذا كله يضع ثوبه الثقيل عليه ويدخل يده واحدة تلو الأخرى في ذراعي الثوب حتى يتأكد من أنه قد أتم ولبسه وينظر في كل الأرجاء ببصره المهزوز؛ ليتأكد أن لم ينسَ شيئًا وينطلق تاركًا صديقه بين الخيال والأحلام والتخدير مطمئنًا على أنفاسه التي كانت تتردد بصعوبة.

يسير مثقلًا قدميه يمشي بأناة وكأنه لا يريد الرجوع.. ولا يرغب في الوصول، فقط يبقى في هذا الطريق مع هذه الريح فترة أطول، منذ صغره وهو يعشق السير في الظلام ويعشق البرد، كم يحتاج لهذه اللحظات ولكن الآن تغيرت، تحولت اللحظات.. رعب وخوف وفزع وتوتر، حقًا لم يعد شيئًا في الماضي كما كان..

تذكر ذلك اليوم حينما كان طفلًا مشاغبًا كباقي الأطفال، ولكنه كان الطفل الغامض بعض الشيء.. فر يومًا من المنزل بعدما تضايق من والديه، فاعتقدوا أنه قد ذهب لأحد أصدقائه القدامى –أين هم الآن؟!–.. لا يدري.. الحقيقة أنه ذهب يتسكع في أحد الشوارع المظلمة خلف منزلهم القديم.. كان يشعر فيه بالراحة، كلما دلفه ووطأت قدماه فيه ليلًا.. حاول أهله منعه مرارًا وتكرارًا وأخبروه بأنهم في مثل هذه الأماكن، يخطفون الأطفال.. بل أخبروه بعدها بأن تلك الشوارع دائمًا ما تسكن بالجن والشياطين، لكنه كان يجد في هذا الشارع السكون والراحة التي لم يشعر بهما لاحقًا..

يخرج سماعاته ويضغط على الذر، فيقوم بتشغيل أغانيه المفضلة، لم يفكر كثيرًا فيما يريد سماعه، فقام بتشغيل أول ما وقعت عليه يده وهي آخر أغنية قد سمعها من أسابيع حوالي أربعة أو خمسة، يضع السماعات في أذنيه المعروفة بال "head–phones" وينطلق مرة أخرى...

«جوايا اتنين وأنا التالت والتالت دايما ساكت، سلم.. بطل يتكلم.. ولا بيحس ولا بيتألم.. جوايا قلب وعقل دايمًا عايشين في حرب.....»

''ما ذنب إيمان؟!'' كاد عقله ينفجر!!

العاشرة مساءً، وياسين قد أفاق كاملًا من غيبوبته، واستطاع أن يفتح عينيه كاملتين بعد سير طويل استغرق ساعتين أعاد له نشاطه المفقود، الآن هو أمام باب بيته، يفتح الباب فيجد أخته يبتسم لها ويقبلها وقبل أن يدخل حجرته يسمع نداءً من خلفه ''ياسين''، صوت يخرج من حجرة أبيه ويلتفت له، ويجيب ''أيوة يا بابا حاضر.''

حاول أن يؤجل هذا اللقاء كثيرًا.. تهرب في كل مرة ناداه فيه.. تحجج بالكثير حتى صارت الحجج التي يلقيها ليس لها معنى ولا غاية ولا مراد.. في البداية يشعر بالإرهاق.. وراؤه عمل ما متعطل.. لديه مشوار عاجل.. وغيره

– تعالى يا حبيبي ادخل عايز أتكلم معاك!

يدخل ويغلق الباب، وقد عادت إليه أحاسيس الخوف والندم والحسرة على هذا الرجل العظيم والمسكين في الوقت ذاته... ترى بما سيشعر عندما يخبره أحدهم بأن ولده الوحيد وفخره في الحياة قاتل، وأنه مذلول ضعيف أمام مجرم شيطاني يحركه كالدمية في يد طفل غير عاقل!! أنه مدخن للمخدرات، أنه سقط ولا

يقدر على النهوض!!

جلس وهو شاحب الوجه، فاقد الثقة وعيناه تحيد خجلًا عن وجه أبيه، وليس عنده ما يلقيه غير الصمت.. الصمت فقط..

– أنت كويس يا بني؟!

ألم يكن والده يومًا هو الصديق الحنون والمثل المفضل!!.. ألم يحكي له كثيرًا وذاب أيامًا معه في الحديث والمناقشات التي لم تكن تنتهي!!!

حاول سجن الدموع المتكاتلة على قرنيته ونظر إلى أبيه في ابتسامة متصنعة..

– الحمد لله يا بابا، الدنيا بس والشغل والمسؤولية بدأت وكدة.

– بص يا بني أنا مربيك وأبوك يعني أكتر واحد حفظك وأنا مش هزود الحمل عليك، ولا هحاول أعرف إيه بظبط إللي مغيرك كدة بس إللي هقدر عليه إني أنصحك وأدعيلك، اوعى الدنيا تتعبك يا بني أو تهدك لأنها في الأول والآخر اسمها دنيا، سبها على ربك وهو شايفك!

لِمَ لا يخبره بما حدث؟؟! أليس من الممكن أن يتخلص من كل هذا؟! من الممكن أيضًا أن يغمي عليه عند سماع تلك الأخبار أو يشل أو يتجلط الدم في عروقه وينجلط قلبه حزنًا.. أليس من الأفضل أن تكتم الأسرار، ولكن إلى متى؟؟!!

– حاضر يا بابا. ربنا يخليك لينا.

يقوم من مكانه ويقبل رأسه ويطلب منه الإذن بالانصراف بعد أن رد ردًا مسالمًا.. لا يقنعك بشيء ولا تدرك منه شيئًا.. هو الرد الذي ينهي الحديث.. تعود عليه كثيرًا الأيام الماضية.. يخرج من غرفة أبيه وقبل أن يدخل حجرته، يصل له إشعار من ذلك الهاتف اللعين الذي أصبح ينبئه بالمصائب والصعاب، لا أكثر.. قريبًا سيبتاعه.. يفتح الرسالة التي وصلته ويبدأ في قراءتها.....

"بكرة 11 مساءً، شقة 7 عمارة 30 الحي الثالث، الزمالك.... مسعد حافظ، تذكر..."

ما الذي يحدث: الأربعاء ١٤ فبراير

الواحدة ظهرًا، يوم دافئ بعض الشيء في الصباح مع أشعة الشمس الخفيفة تغطي الأرجاء وتدخل من نافذة المكتب الذي ليس بالكبير أو بالفخم الواسع بل هو مكتب متواضع وما فيه من أدوات وأجهزة وأثاث بسيط.. ولكنه يشعرك بالراحة والهيبة، عندما تجلس فيه، منظم ومرتب ونظيف، بالرغم من كثرة القضايا والأوراق المترامية في كل مكان به، ولكن طالما أنه مكتب محمد رضوان فلا بد من النظام والوقار أن يتواجدا بداخله.

يجلس محمد باشا يفكر ويرتب ويقرأ في الأوراق، ويحللها ويعيد

التفكير ويتعمق أكثر وأكثر فيه، وتطرأ أسئلة لا عدد لها في رأسه، والإجابات قليلة وضعيفة وأدلة شبه منعدمة، ولكن لا صعب على رجل حازم قوي أعطاه الله موهبة فذة ويسره لما خلق له.

يعطي الله الكثير، ونحن لا ندري ثم يأخذ القليل، فنصاب بالهم الكبير!! مثال على ذلك هذا الضابط الحازم العادل الذي تكلم الجميع عن شدته وقوته في الحق.. في نفس الوقت هو ذاك العابد الراضي الذي رضى بقضاء الله وحمده على نعمه.. حرمه الله من نعمة الولد، ولم يرزقه الإنجاب، فما فعل إلى أن رضى وشكر ثم اتبع هذا الشكر بالإخلاص في العمل والتفاني فيه، فالتفت لقضايا الشباب ومشكلات القتل والمخدرات وبعض من الدعارة وغيره من القضايا الحالية.. يعرف جميع قائديه ورجاله في العمل أنه إذا كانت هناك قضية شباب أو خطر عليه، فالأنسب لها هو محمد رضوان.. أحس أن هذه هي رسالته في الحياة، فأفنى فيها وقته وطاقته، ولم يتكاسل..

يطلب أحد أمناء الشرطة الإذن بالدخول.. الأمين مصطفى هو أحد رجاله وعيونه المندسة في كل مكان، تقريبًا يعتمد عليه كثيرًا ويفوز بثقته المطلقة.. يأذن له محمد رضوان وهو منهك في عمله، شاغلًا كل تفكيره، فيقطع الأمين هذا الانشغال قائلًا:

– محمد باشا.. تحب آجي لحضرتك وقت تاني؟!

– لا يا مصطفى تعالى. وصلت لإيه؟

- بالنسبة للجثة يا باشا، طلقتين في الظهر واحدة على اليمين شوية والثانية اخترقت القلب، ومن تحليل الجثة عرفنا إنه كتم بوقها وصوتها لحد ما ماتت وقعدت في كدة فترة حوالي من ٥ دقائق ل ٩ دقائق وحطها في العربية وقفل عليها.

- الكلام ده الساعة ١١.

- بظبط يا باشا، التقارير بتقول إن الجريمة حصلت من ١١ وخمس ل١٥: ١١بالظبط.

- وسكان المنطقة؟؟

- منطقة كلها مباني جديدة يا باشا وتحت الإنشاء والعمال في العماير ديه بيروحوا مع المغرب، أقرب عمارة مسكونة تبعد حوالي ٢٠٠ متر وسألنا فيها إذا كان حد سمع صوت غريب أو شاف حاجة وكانت الإجابة لأ وده دليل على إنه استخدم مسدس كاتم الصوت والعملية تمت بسرعة جدًا.

- وإللي حصل في المكتب بعد ما نزلت، السرقة؟

- أهو ده الغموض كله معاليك، التقارير أثبتت إن عملية السرقة كانت في نفس الوقت وبعد البحث ورفع البصمات موصلناش لأي حاجة، معناه....

- إنه محترف جدًا، مخدش أي ورق؟

– لا يا باشا خد فلوس بس، مش غريبة شوية!

ينظر محمد رضوان إليه وكأنه دخل في متاهة، ولا بد من الخروج منها ومعرفة آخرها، لوح برقبته يمينًا ثم يسارًا يطقطق عظامها، ثم نظر إليه مجددًا ليكمل قائلًا..

– والله الموضوع كله غريب، أنا شوفت كل ملفاتهم وتفاصيلهم، لا إيمان ولا أبوها ليهم أعداء يتسببوا في قتل وسرقة كدة!

– الله أعلم بقى يا باشا، البركة في ربنا ثم حضرتك!

– أي جديد بلغني، وصور مسرح الجريمة تكون على مكتبي وتقرير الطب الشرعي وحاجة كمان الورق إللي كان في الخزنة.

– تمام معاليك.

تردد:

الثالثة عصرًا، وياسين لم يحرك ساكنا منذ أن استيقظ، وكأنه لم يفتح عينيه قط، والحقيقة أنه لم يغلقها طوال الليل ولم يستطع النوم ولو ساعة. ليلته كانت على النحو التالي: يشعر بالبرد، فيحاول تدفئة كل أطراف جسده تحت البطانية ولا يكفيه هذا، فيزيد من عدد الأغطية التي تعتلي جسده، ولكن الخوف هو

الذي يشعره بالبرد في الحقيقة.. والتي يسارع في إخفائها، ينظر بعد ذلك ويعيد قراءة الرسالة كاملة مرة واثنان وعشر مرات، ويقف في كل مرة عند الكلمة الموعودة ''تذكر''، فلا يتذكر شيئًا غير أنه قد هلك وقد قربت ساعة سقوطه والتي أيضًا، حاول أن يبطئ وقوعها، استمر في التحدث إلى نفسه واستمر في طرح الكثير من الأسئلة «لماذا كل هذا؟''.. لماذا لم يخبر مريم عما حدث في البداية ومنع نفسه من الوقوع تحت أقدام الذل والإكراه؟! لماذا لم يصارح أباه ويبكي بين أحضانه كعادته منذ أن كان طفلًا؟! أليس هذا أفضل مما يحدث الآن!! ولكن إنه الاختيار..

أنت الذي اخترت هذا الطريق.. لم يجبرك عليه أحد.. هو الذي قرر خوض هذه المغامرة، ودخل إلى بيت الرعب دون استئذان!!

الاختيار.. هو الطريق الذي نسلكه وننظر للطرق الأخرى، فإما نندم وإما نبتسم لنقول «كنا على حق»، هو اختار الباطل، لو عاد لاختار الحق!

يسأل ويفكر وعقله يلف ويدور ثم يغمض عينيه، ويحاول جاهدًا الهروب ولو لبضع دقائق، هكذا طوال الليل، لا جديد يطرأ إلى عقله، فيعطيه جرعة من الأمل، ولا ضعف وانهيار في القديم من مبادئه، فيحاول الانتحار! وبين هذا وذاك، فتح عينيه

فجأة وبدون تردد معتاد، غريبة هذه المرة كأنه قرر أمرًا عاجلًا، وبدأ في تنفيذه.. اتصل بأخيه مالك وبثبات، كأنه قرار لا رجوع فيه بدأت المكالمة؛

– ألو! ياسين عامل إيه؟

– مالك أنا مش هنفذ النهاردة.

– اهدى بس وفكر، أنت كنت بتقول إن الناس ديه مش سهلة ويعرفوا كل تفاصيلك!

– أنا هقابل مريم النهاردة وهقولها على كل حاجة وهنهي كل ده بنفسي، كدة كدة هينتهي قريب.

– طب مفكرتش هترد تقولك إيه وهتتصدم إزاي وباباك، ده هيروح فيها!!!

– هدعي العواقب تبقى هينة لكن مش هقدر أكمل في كل ده أكتر من كدة.

– طب فكر تاني وحاول تعيد.....

– أنا قررت يا مالك خلاص، سلام.

هي اللحظة التي تقرر فيها أنها النهاية.. أنت المخرج والمؤلف، وأنت البطل والقرار بيدك.. هي نهاية الطريق مهما كانت.. هي اللحظة التي تنقذ فيها نفسك، وتنهي فيها كل ما يفرقك،

وكأنك وصلت للشاطئ أخيرًا بعد ركوب الأمواج!!

يزيح عنه الغطاء وينزل بقدميه على الأرض ويذهب فيدخل وينظر في مرآة الحمام، ويبدأ في الوضوء، ثم يخرج فيصلي العصر وفي كل سجدة دعاء ومع كل كلمة تخرج في دعائه يتجدد تلقائيًا الأمل... الأمل المفقود!!

ينتهي من صلاته، فيتصل بمريم ولكن بدون رد، فيعيد الاتصال، ولا جديد يحدث. فيقوم بفتح ''واتساب'' وبدون أي تراجع، يبدأ في إرسال تلك الرسالة الصوتية ''مريم وحشتيني، أنا عارف إني كنت بعيد بقالي فترة وغريب ومأثر معاكي جدًا، بس محتاجك دلوقتي أكتر من أي وقت فات، النهاردة هنتقابل زي ما اتفقنا وهحكيلك عن حاجات كتير محتاج أحكيها أنا آسف على كل حاجة وأي حاجة زعلتك مني، لو نايمة فردي عليا أول ما تصحي ولو مشغولة فكلميني بسرعة لما تخلصي، أنا رجعت خلاص... أنا آسف''

راوده هذا التساؤل الخفي فملأ قلبه رعبًا.. «هل فات الأوان؟!»

الساعة الرابعة والنصف، ومقابلة مريم ستكون في الخامسة والنصف لذلك أسرع في ارتداء أفضل ما لديه، ووضع بعض الرشات من عطره المفضل والتي قد أهدته إياه في أحد أعياد ميلاده السابقة مع ساعته المفضلة والتي أيضًا كانت منها عندما

قرر العام الماضي أن يبدأ في رسالة الماجستير، ففرحت جدًا لم ينس فرحتها ذلك اليوم وأيضًا فرحته عندما فاجأته بتلك الساعة الثمينة.

نظر إلى الساعة، فوجدها تقرب من الخامسة، فأسرع في إنهاء ما يفعله وانطلق حتى لا يتأخر عليها، ولكنه قد تأخر، تأخر كثيرًا.....

في الساعات الأخيرة:-

الرابعة والنصف، لم تغرب الشمس، ولكن غرفتهم المظلمة كعادتها لا يهمها إن كنا صباحًا أو مساءً، عصرًا أو عشاءً فهي مهيأة للظلام ومجهزة لعالمهم الخطير كأفلام الرعب كما قلنا أو لرعبهم الخاص... يدخل كريم وقد بدا عليه الاضطراب والقلق ولم يهدأ أو يستقر، طالما أن الذي وضع الورقة التي تحمل اسمه وصورته في مكتب عبد السميع مختفي ومبهم، ولا يعرف له طريقًا ولا حتى اسم، كان شكه في البداية في من خلق منه هذا الكائن وشكل هذا الوحش المخيف، لكن العمل الآن، هو عمله والضحايا الآن هم ضحاياه وهو الذي اختار هذا الانتقام بنفسه، فكيف يشك في من يبعد كل البعد عن تلك الأحداث؛ لأنه أصبح وحشًا مدمرًا فيظن أن الكل أوغاد مثله غدارين!!

أيعقل أن يكون سنارة! ما الذي يدفع سارق لا يهمه إلا

أوراق ال ١٠٠ أو ٢٠٠ إلى أن يخيف شخصًا مثل كريم الذي يعد مصدر رزقه وسعادته!

لقد لجأ كريم إلى لص محترف وسارق جيد.. لم يطقه منذ أن قابله، ولن يطيقه أبدًا ولكن يحتاجه.. هو الذي دله على ذلك الشاب ياسين وعلى سره المحجوب، فاستغله لإرضاء رغباته المتوحشة.. احتاجه أيضًا لتنسيق الأمور وإرسال الرسائل للتنفيذ.. أراد أن يكون بعيدًا كل البعد عن تلك الصورة القذرة والألعاب الفاسدة.. لكنه الآن خائف! لماذا؟؟ في الحقيقة، الصور كلها صورته حتى وإن غاب عنها!!

الأمور متداخلة والأعصاب شبه متلَفة، والمخيف في الأمر أنه قد اتصل كثيرًا في الساعات الماضية على سنارة، ولم يجد ردًا ومع تزايد عدد مرات محاولة الاتصال وبالتالي عدم الرد، يتزايد الشك ويظل التوتر مستمرًا، يجلس كريم وقد أخذ منه التعب ما أخذ، فلم ينم الليلة الماضية وكيف يأتي النوم لاثنين؟؟؛ عاشق مستيقظ، يحلم بمعشوقة، وخائف قد أثقلت عليه المصائب أوزارها!!

في ظل هذا العمق الواسع من التفكير، يسمع كريم خطوات سريعة قوية توحي بثقل وزن صاحبها، ولكنها سريعة كأنه يركض يهرب من شيء ما، ثم ينخفض صوت تلك الخطوات حتى يختفي، يسمع بعدها يدًا تطرق على الباب طرقة خفيفة، ليست

لسنارة، فقد اعتاد منه على الإزعاج، ولكن المدهش أنه لا يعرف أحد شيئًا عن هذا المكان وهذه الشقة غيره هو سنارة وأن لها باب خلفي ودائمًا ما يدخلون ويخرجون منه.

دون ملاحظة أحد، لا بالنسبة للعامة وبالنسبة للعامل صاحب العقار، هي شقة خاضعة للإيجار غير مسكونة ملك كريم. يضع مسدسه في جيبه وبحذر وخطوات بطيئة، يصل إلى الباب ويسأل عن الطارق! فيسمع صوتًا مهتزًا اختلطت مخارجه..

– أنا سنارة... افتح.

فتح بسرعة قصوى ليجد سنارة قد أشقاه الركض، والعرق يصب كالماء على جسده وضربات قلبه كالصاروخ، أغلق كريم الباب وبكل قوته وغضبه اندفع نحو سنارة وشده من قميصه....

– أنت مبتردش عليا من إمبارح ومختفي ليه وجي تدخل من الباب ده ليه؟!!

– كنت في عملية والموبايل مش معايا ومرجعتش البيت عشان أجيبه.

– أنا مليش دعوة بالكلام ده،، بقولك إيه؟ أنت لو فاكر إنك هتهزني بحتت الورقة ديه وكدة هخاف تبقى أهبل! الورقة إللي في مكتب إيمان أنت إللي عملتها!

– الورقة إللي أنا جبتهالك!!!

قالها سنارة وكأنه يسخر منه بشدة، فكيف يتهم من أوصل

له الورقة بنفسه!!

– إللي عملت فيها بتجبهالي!

– وأنا هعمل كدة ليه، ويفرق معايا أذيتك ليه، طالما الفلوس في جيبي!

– إنك تخدغني مثلًا! تهددني!

يحاول كريم إلقاء اللوم عليه في الوقت ذاته، لم يقتنع هو باتهامه،، رد عليه سنارة مدافعًا عن نفسه..

– بردوا هستفيد إيه! أنا محتاجك وأنت محتاجني، وبعدين هو إحنا مش وقفنا الكاميرات بتاعت المكتب قبل ما أدخل أسرق! مش أنت عندك الفيديو الأصلي، هتلاقي إني دخلت لقيت الورقة موجودة أصلًا واستغربت فخدتها ومشيت بعد ما خلصت!

– لو كلامك صح فمين المستفيد من كدة!

– معرفش، في حاجة أهم دلوقتي من كل ده!!!!

يترك قميصه ويعود خطوة إلى الوراء وبقلق شديد يسأله!

– حاجة إيه؟!!

– ياسين، أنا كنت مراقبه، مش هينفذ النهاردة!!

ذكرى :-السابعة مساءً، الدقي..

احلم معي بليل قد ارتاح فيه الجسد بعد كل ما بذله من عناء وخفقت فيه ضربات القلب وهدأت فيه العروق واستقرت فيه النبضات، تفاجأ العقل أنها لحظة السكون وتنفست فيه النفس راحة الحياة واستعدت الروح لاستقبال صباح جديد مليء بأصوات تناديك بالابتسام وأضواء تخبرك بأنه الأمل والذي تمنيته يومًا سيكون، فتبدأ بالنظر إلى السماء وكيف تزين سوادها ببياض القمر وتنسى ولا تتذكر غير كل ما قد أسعدك يومًا ما....

ألم يمر عليك الوقت الذي لمست فيه سعادة دون معرفة مصدرها أو أحسست راحة دون السؤال عن سببها!! هذا لمجرد أنك تذكرت ما يفرحك ولو لدقائق، حينها تنسى اللحظات العجاف وتنطلق نحو الماضي القريب.. تشم ريح الأيام وتعيش معها كأنها الآن..

هكذا حال ياسين، وكيف لا يكون في هذه الحالة؟! وهو في المكان الذي جمعه بمريم في أولى أيامهما.. كم يعشق هذا المكان الهادئ.. "Garbi cafe" الذي يتحدث عن كل ذكرى وتكثر الحكايات، إنه الوقت الذي تنسى فيه كل صغيرة قبل أي كبيرة قد تعكر حالتك وتعشق كل شيء في الوجود، تنظر بحاسة النظر فتعشق الألوان، تشم رائحة الماضي وتسمع دندنة الأيام،

لن ينسى اليوم الأول، عندما دخلت كالعاروس ماشية بأقدام لا تشعر الأرض بها من خفتها، وغمازتان قد سحروه بابتسامة لا تخلو من رقتها، يتذكر كل ثانية وكل مشهد وكل حركة، صوتها الذي لم يسمع غيره ذلك اليوم.. ليس بالمنخفض الغريب ولا العالي الشديد بل موسيقى قد نام عليها وتمنى ألا يفيق، أما نظراتها البسيطة الخجولة بعض الشيء، وابتساماتها الوردية التي ترتسم علو وجهها الأبيض الناصع، فهي عالم آخر.. يحتاج إلى كتاب حتى يستطيع شرح ما فعلت به ذلك اليوم..

نعم إنها مريم وأنه اليوم الأول الذي تكلم معها، عرف كيف يصل إلى حبيبته، عندما قرر أن يخطو بجرأة، ويطلب من صديقته سها والتي كانت على معرفة بمريم أن تسألها إن كانت ترغب في إخراج وتصوير بعض من مشاهد ولقطات لآراء الناس في أماكن مختلفة عن بعض من أمور الحياة، ويعلم تمامًا أنها مولعة بالإخراج والتصوير، هي الفتاة التي تدرس في السنة الثانية من كلية الإعلام وكم تعشق هذا المكان؟! لقد اختاره من أجلها وأحبه بسببها.. كم كان ذا حظ حينما وافقت على مقابلته وجلست أمامه وبدت وكأنها جوهرة قد انفتحت لتغير حياته من مهندس طموح وطالب وصديق كريم وإنسان طيب الروح إلى رجل مفتون وشاب أراد أن تدخل حياته امرأة، فتحرر كل مسجون وتحيي كل مدفون وترفع من كل الصفات الحسنة درجات ودرجات، لا ينسى السنة الثالثة له في الجامعة، هي التي

عرفها فيها، وقد تخطاها بتقدير ممتاز.. لقد تقدم بمعرفتها في كل جوانب الحياة..

قام من كل هذه الخيالات والذكريات؛ ليتأكد من هاتفه، فلا يجد جديدًا!! ما زال لا يعرف لها طريقًا، لكنها ستعود، ستعود إليه! سينهي كل هذا عما قريب..

يعود بظهره للوراء مرة أخرى وينظر من خلال النافذة، فيجد الليل الصاخب وأضواء المصابيح والأقدام تسير والشارع مليء بالأحداث، فيبتسم ويتذكر..

بدأ يتذكر من حيث قد انتهى، مرت سنة تحمل أجمل المعاني، البدايات كما يجب أن تكون، الشوارع التي ساروا فيها وصوروا الصور وأخرجوا معًا المشاهد، لا ينسى الصحبة التي كانت تجمعهم، هو ومالك ومريم وسها، حينما يتذكر تلك الأيام، فلا يأتي لعقله غير كل مواقف الضحك واللهو والسعادة، لم تذهب السعادة والابتسامة قط حتى وإن أخذ الحديث مجرى الجد، لا ينسى المطاعم التي أكلوا فيها معًا والأماكن التي جلسوا فيها معًا إلى أن جاء ذلك اليوم الذي دائمًا ما تذكره قلبه وهدأت مع ذكراه حواسه، كان هنا في نفس المكان وكما اعتادوا أن يتقابلوا، ولكن هذه المرة كان للاحتفال بعيد ميلاد مالك والصدفة لقد كان في هذا التوقيت 14 فبراير، نسى هو الآن هذا التاريخ وهذه المناسبة، كيف لا وقد نسيها مالك هو الآخر!؟

مالك منذ وفاة سها، وهو لم يتذكر شيئًا، ولم يرغب في شيء.. أصبح كما هو الآن..

في هذا اليوم تم الاحتفال وقضوا أوقاتًا معًا مرحة كعادتهم إلا أن اضطر مالك للرحيل، وذهبت سها لإحدى صديقاتها في المساكن المجاورة، وقرر ياسين أن يوصل مريم لأقرب مكان، ففاجأته بأنها تريد المشي في الشوارع والتسكع في الطرقات، وكانت الساعة السابعة، ولم يستطع كتم السعادة التي حلت به وقتها وكم تمنى أن تقف عقارب الساعة، ولا تتحرك وأن يطول الزمن في هذه اللحظة حتى وإن قام بتكسير معادلات الفيزياء وتحريف قوانين الطبيعة، ولكن إنها الحياة يوم لك وغيره دون أن يتفاهم معك، سيكون عليك.. لا ينسى كيف ساروا معًا لأول مرة حديثًا منفردًا على أرض الواقع بينهما ولحظات لهما فقط وحدهما، حكى لها عن نفسه، كلمها عن عادته وطموحاته التي لا تقف عند حد، سمع منها ذكرياتها وأيام طفولتها، حفظ كل كلمة قالتها له ذلك اليوم، يتذكر جيدًا ذلك الموقف الطريف عندما أخرجت من حقيبتها صورة لها وهي صغيرة تبكي وشعرها رغم أن عمرها في الصورة لا يتخطى الثامنة فإنه كالحرير يتمايل مع قصره ويستقر على كتفيها، كانت الصورة غريبة الأطوار، تضحكك من منظرها الباكي، وتجعلك معجبًا بخفتها وبراءتها وتنبهر من جمالها.

فتح عينيه بعد كل هذا وتذكر أنها مجرد أيام قد انقضت ولا

يدري هل من المعقول أن تعود!؟

هناك قاعدة ثابتة الذي انكسر لا ينصلح مجددًا.. والماضي لا يعود.. لا يعود..

أفيق من غفلته والتي استمرت لبضع دقائق وذكرياته القليلة التي مرت وكأنها سنة، ما أجملها!

يحاول إيجاد ساعة حائط، فتقع عينه على واحدة في المقدمة؛ لتخبره بأنها السابعة والنصف، لقد تأخرت كثيرًا وليس هذا من عادتها، يحاول الاتصال مجددًا، ولكن هاتفها أصبح مغلقًا ولا يوجد حل للوصول إليها، التوتر عاد مرة أخرى، وقلقه يزداد وهذه المرة خوفًا على حبيبته مريم والتي من الممكن أن يكون أصابها مكروه، ولكنه لا يعلم ولا يفهم، يخرج من سجلات المكالمات في هاتفه رقم والدة مريم ثم يتصل محاولًا الوصول إليها سريعًا..

– السلام عليكم، إزيك يا طنط، متعرفيش مريم فين يا طنط؟

– هي اتأخرت شوية يا حبيبي نزلت من نص ساعة كدة، هتلاقيها على وصول. طب ماتكلمها!

– موبيلها مغلق من أكثر من نص ساعة يا طنط ومش عارف أوصلها.

– يمكن فصل شحن، مسافة السكة ولما تتطمن طمني.

– حاضر...

لم يذهب عنه الخوف ولم ترديه كلمات والدتها.. لكن القدر قد كافأه ببعض من السكون والهدوء ولو لبضع دقائق أخرى ومن يعلم! ينظر حوله مجددًا، فيجد الكل مشغولًا في حاله، مكان رهيب ومريب حقًا!! اجتمعت فيه منابع الفرح والشقاء والحزن معًا، مصادر الفرح والسعادة التي تحمل الأحاديث والضحك والهمس، خفقان القلب وراحة النفس، ومنابع الحزن قد تجسدت في صورة ذكريات وماضي أصبح مجرد ذكرى الآن، حكاية نطير معها لزمن لم يعد له وجود، ولكن تعيش معها أرواحنا وكأنها واقع الآن.

يعود مرة أخرى لينظر على يمينه ثم يساره، هناك عدد من البشر بكل الأعمار والفئات قد اجتمعوا في هذا المكان، أمر عجيب.. أما عن يمينه، فهناك عدد من الشباب، أربعة أو خمسة، يجلسون على الطاولة المجاورة له، أصواتهم مسموعة لكل من جلس في هذا المكان تلك الساعة، حماس الشباب واندفاعهم ظهر في أصواتهم وحركاتهم التي لاحظها الجميع.. هناك على يساره أم وأولادها، تنظر إلى ساعتها كل بضع ثواني، كأنها تنتظر أمرًا ما أو شخصًا ما، ربما الأب والذي وعد تلك الأسرة البسيطة بقضاء ليلة معهم، هل تعطل في أمر ما؟!

أما هناك في الزاوية التي ينتهي عندها المبنى، يجلس رجل

ظهرت عليه ملامح الحزن والتمني، يستند بكفه على الزجاج بجانبه ثُم يضع خده على كفه وينظر بعينه للخارج، ينظر إلى العالم الآخر، الشارع، الأضواء، الناس.. هل يتألم مثله؟! أنكر ياسين هذا، لا أحد يتألم مثله الآن!!

راوده شعور غريب في تلك اللحظة، لا يعرف هل فضول أم استعطاف لمعرفة ما بداخل هذا الرجل وكأنه رأى ظله الآخر وروحًا تشاركه ما فيه.. قام من مكانه واقترب منه، لم يلتفت إليه الآخر وكأن ما وصل إليه أصبحا عميقًا يصعب على الغريق الخروج منه بتلك السهولة..

– لو سمحت، يا أستاذ، حضرتك..

كرر طلبه في الاستئذان حتى ينتبه إليه، فالتف الرجل إليه بصعوبة وقد بدا على عينيه لون الحمرة، لا يعرف ياسين هل هي من التعب أم المرض أم الخوف أم الحزن؟! لكن يريد أن يعرف وسيعرف..

– أيوة،،، اتفضل.

– بدون أي تطفل والله، بس أنا لاحظت حضرتك هنا بقالك فترة وشكلك مش كويس، لو أقدر أساعدك، ممكن تقولي إزاي!

– الأمر بإيد ربنا يابني، المساعدة بإيده هو!

– ونعمة بالله!

استكفى ياسين بهذه العبارة «ونعمة بالله» وكأنه أحس أنه لا يوجد ما في يده ليقدمه! هو عاجز عن مساعدة نفسه، عاجز عن الحياة..

– أنا ابني في المستشفى، بين الحياة والموت، المساعدة بإيد ربنا، المكان ده كان بيحبه، كل يوم بعدي عليه في المستشفى وبعدها أروح على المكان إللي بيحبه وأدعي، ادعيلو...

– ربنا يقومه بالسلامة، إن شاء الله هيرجعلك ويبقى كويس، أستأذن أنا!

قام ياسين من مكانه، فلم يقدر على مجاراة هذا الحديث كما يعجز عن حل ما بداخله، ولكنه يحاول..

قبل أن يعطيه ظهره وينصرف، وصلت مكالمة للرجل من خلفه وإذا به فجأة تتساقط دموعه دون أدنى إرادة منه ثم يغوص في البكاء ويردد «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فهم ياسين ما في الأمر وأحس بالرعب مرة أخرى، تذكر مريم، أين هي؟؟! لم يقدر على التفوه بكلمة، وترك الرجل في مكانه، فشل كليًا في مساعدته، فابتعد رويدًا وهو غير مصدق لما يحدث..

لقد انقلبت حياته رأسًا على عقب، وتغيرت كل الأشياء من حوله؟ هل هناك أمل؟؟ ينظر إلى الساعة فيجدها الثامنة، لم يعد

يطيق الجلوس ولا يعرف أين هي، قام من مكانه ووضع الحساب في «الشيك» بعد أن طلبه وانصرف وقبل أن يخرج من الباب ألقى نظرة أخيرة وكأنها نظرة الوداع.. هل من الممكن أن نعود!!

وبدأ كأنه يهمس بصوت منخفض جدًا ''كان يا ما كان''، ورحل.

نزيف:

أخبرني، هل محك النهاية هو الراحة؟ أم هي بداية تعب؟ هل كتب علينا ألا نرتاح يومًا؟ أم في النهاية هناك أمل؟ هل من الصعب أن نشعر بالاطمئنان؟ أم من السهل ألا نجد لمشاعرنا مخرجًا؟ هل نفقد من نحب مصادفة؟ أم إنه القدر!!!

أخبرني، هل الوصول إلى اللحظة المخيفة مسألة وقت أم اختيار، هل من الممكن أن يصبح الاختبار إجبارًا!! أنت الذي اخترت اللحظة الحرجة وأنت الذي تدفع دائمًا الثمن!

الاختيار... هو الشيء الأصعب دائمًا في عالمنا، هو الذي يدفعك إلى الخلاص، وهو الذي يدفعك إلى الندم.

نعيش في بطون أمهاتنا وتدب فينا الأرواح لشهور ثم نخرج لنتنفس الحياة بضع سنين.. منا غلام وفتاة، ثم يأتي بعدها عمر يخبرونا أننا فيه مسؤولون ومخيرون، فتبدأ من هنا الدائرة والتي تبدأ

باختيار أنت مسؤول عنه ومتحمل كل عواقبه، وتأتي العواقب وتتحملها حقًا ثم تعود مرة أخرى، وتبدأ من جديد في الاختبار ثم تتحمل عواقبه، وهكذا تدور...

الأسرار... لم يكذب من قال يومًا إن الستر لهو من أعظم النعم، تخيل أنك تقف الآن أمام من تحب، أمام من تشعر أمامه بأنك عظيم الشأن جليل القيمة، هو يشعرك بذلك ويخبرك دائمًا أنك المفضل لديه ومثله الذي يحتذى به ومرشده في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى ملهمة، تخيل إذن معي أن كل ما حدث لك، أصبح واضحًا أمامه، كل ما أحرجك وأحرج نفسك، أصبح معلنًا، وأنت تقف تنظر إليه، أخبرني ماذا تفعل؟!

الانكسار... القاعدة دائمًا ثابتة ولا إصلاح فيما انكسر.. لكن ما رأيك في الجديد؟! ما رأيك أن نرمي اللعبة القديمة ونأتي للطفل بغيرها جديدة؟! أعتقد أن الجديد ينسي القديم حلاوته إن كان يفوقه جمالًا وينسيه أهميته إن كان يسبقه مكانة.. هل نسيت القديم من قبل، عندما جاءك الجديد؟؟؟!!

خرج ياسين إلى الشوارع مجددًا، إلى عالم البشر، قلب الحياة.. تاركًا حياته بثقلها على أكتافه يمشي بها لا تفارق لحظة وإن عاش في ذكرى لدقائق أو حتى ساعات فحتمًا سيعود مرة أخرى لحاضره، وينظر فيرى الحمل فوق رأسه وإلى نفسه وحاله فينسى

الذكرى ويتألم بها.. هنا الجديد لا ينسيه.. حتى وإن كان الجديد مجرد ماضي يتذكره!!

ترك خلفه مالك ينغمس في حالته وقرر قرارًا كان بمنزلة الاختيار بالنسبة له، لا يعرف لماذا اندفع إلى قراره وإلى اختياره، لكن كما قلنا سابقًا "أنت المسؤول عن كل عواقبه".. هل دفعه أحد إلى الجريمة البشعة تلك!! دفعته رسالة التهديد ودفعه الخوف من إظهار المكشوف.. من الفضيحة.. من المحاكمة! دفعه صورته التي تخيلها أمام مريم، عندما تعلم بماضيه الملعون أو سابقته العار! الآن أن تقف أمام من تحب، أمام من تشعر معه أن عظيم الشأن جليل القيمة.. تخيل إذن معي أن كل ما حدث لك أصبح واضحًا أمامه!!!

«أخبرني ماذا تفعل؟!»

لم يرد الاتصال بمريم مجددًا، شيء في نفسه منعه وشيء آخر قتل الكثير بداخله، لم يفهم ماذا حدث له في الدقائق الأخيرة وما الذي سيحدث في اللحظات القادمة، كل ما يعرفه أنه قد أخرج هاتفه، ونظر إلى الساعة، فوجدها تخطت التاسعة والنصف، فعزم أمره وانطلق، وقف على بداية مدخل شارع ومن على رصيف هذا الشارع شاور لأحد سيارات الأجرة قادمة من مسافة بعيدة، وقفت أمامه السيارة ومن ثم نظر إلى السائق ونظر الآخر له، ولم يتفوه بكلمة، لم يفعل سوى أن ركب بجانبه ووجهه

ارتسم عليه كل الغضب والضيق وجاء الرد السريع عندما سأله السائق:

– على فين حضرتك؟

– الزمالك.....

من ناحية أخرى يتنقل بنا المشهد إلى أستاذ كريم الشرقاوي، رجل أعمال صغير السن وشاب في بداية سن الشباب عريس متزوج من فتاة أحبها، عندما تراه تعتقد أنه شخص ناجح.. وله ولأسرته مستقبل يتمناه الكثير..

لم يتذكر كريم وجه والده ولا ملامحه إلا في تلك الصورة التي كان يشاهدها مع أمه في السادسة من عمره.. بالرغم من صغر سنه فإنه يتذكر جيدًا تلك الصور!! –هناك دائمًا ذكريات لا نغفل عنها حتى الموت–، مات والده وهو رضيع في السنة الأولى من عمره، فكانت أمه خير أب وأم له بعدها.. يتذكر جيدًا يوم جرى عليها فقابلته بابتسامة وضمته نحوها في حنان لا نظير له.. يتذكر كيف علمته وربته دون أن تشتكي له مصاعب الحياة، ولقد كان يعلم جيدًا كم كانت حياتها عسيرة، بل رأى بعينه كيف كانت شاقة!

يقوم في هذا الوقت؛ ليلبس ملابسه الشتوية الثقيلة، ويتزين في حجرته قبل النزول وقبل أن تدخل إليه سارة..

سارة.. هي نقطة ضعفه في تلك الحياة!! إنها نقاط الضعف التي تحول العاقل إلى مجنون.. القط الصغير إلى أسد مفترس، وقد سال الدم على فمه!

منذ أن رآها وهو يشعر بالسعادة التي ضاعت مع وفاة والدته.. عرف معها أن الحياة سيجال، وإن حطمتك أيام، فلا بد أن تمد يدها لك تساعدك أيام أخرى.. كريمة هذه الحياة.. لكن كرمها هذا لم يطفئ ما في قلبه من حقد وغل ولم يطفئ ما في جوفه من ألم..

دخلت إليه سارة مندهشة

– هو أنت نازل فين دلوقتي يا كريم؟

– شغل مفاجئ والله يا حبيبتي ساعة زمن وأرجع.

– كريم مخبي عليا إيه؟

– أنا عمري خبيت عليكي أي حاجة يا سارة؟

– يا كريم أنت مش شايف بقالك فترة خروج باليل وشغل متأخر وأحيانًا كتير نفسيًا مش كويس، أنت كويس؟

يبدأ في التفكير مجددًا عما تبقى له من الحجج؛ ليبلغها..

– يا ستي والله أنا كويس وعشان تتأكدي أهو آخر مكالمة من أستاذ إبراهيم رئيس مجلس الإدارة في مشكلة في الحسابات

يعني هخلص ومش هتأخر، أنتي مش ملاحظة إني مبقدرش أبعد عنك أصلًا؟

– أنا ملاحظة إنك بتاع كلام!

– طب هخلص ونيجي نشوف إيه الكلام»!

تبتسم أخيرًا لم يجد صعوبة بالغة في إقناعها، ابتسم هو الآخر لها ومن ثم قبلها على جبينها وتركها وذهب حاملًا معه أسرارًا أمامها بعد.. ماشيًا في طريقه لا يفكر إلا فيما من الممكن أن يفعله إذا انكشفت لها....

''أخبرني أنت ماذا تفعل؟''

من مشهد آخر، يخرج سنارة متسللًا قبل أن تلاحظه صغيرته التي يحبها ويشفق عليها، والله لو بيده لعاد لها وبقى جانبها طوال الليل، لا يعرف لما هذا الخوف الآن، ليست المرة الأولى التي ينزل ليلًا ويقحم نفسه في عالمه القذر هذا.. لكن الليلة غير باقي الليالي..

– ملك، الساعة بقت تسعة ونص، مش فيه مدرسة الصبح؟

تقف بكل براءة تنظر لعينيه، ولم تكن مثل كل ليلة وكل وقت وكأنها خائفة ومستنجدة به.

– أنت رايح ليه الشغل دلوقتي، أنا عايزاك تبات معايا!

تعودت منه على السهر والعمل في أوقات متأخرة من الليل، كيف لمندوب المبيعات أن يعمل في مثل تلك الأوقات!! الكذبة التي أخبرها بها، أما باقي الحي فيعرفون أنه ذو مصالح ورزق، إن وجد فرصة لجني المال يسير فيها، اقتنعوا باسم سنارة..

– مش هتأخر والله، وطنط سعدية جية تبات معاكي يا ملك متقلقيش يا حبيبتي.

– لا أنا مش عايزاك تمشي!

أخذها بين أحضانه، فلم يشعر بهذا من قبل ولم يضعف يومًا هكذا، قبلها برفق على خديها ووعدها بالعودة سريعًا..

الوعود.. سبب من أسباب البقاء في الحياة..

أدخلها حجرتها ووضع عليها غطاءها واطمأن عليها ثم وقف على باب حجرتها ونظر إليها، كم تمنى ألا يصبح هكذا وكم تمنى أن يترك كل هذا الفساد والسرقة والعمل المشبوه ويبقى لها وتفتخر به، ما الذي سيحدث إذا انكشفت كل أسراره أمامها، وعرفتها وعرفت ماهيته!

''أخبرني ماذا تفعل؟''

نعود إلى شوارع القاهرة المزدحمة ليلًا وأصوات المركبات التي تملأ الليل ضجًا، الشوارع مزدحمة والأصوات مرتفعة وسيارة الأجرة تسير ببطء شديد، يجلس بداخلها ياسين وقد سافر بعقله بعيدًا

إلى عالمه وذكرياته الماضية، لم تظهر أمامه السيارات والمحلات والأسواق الليلية إلا مجرد ألوان وأضواء قد ذهب بخياله معها إلى عامين قبل هذا، ذهب إلى الوقت الذي أصبحت فيه مريم كل ما يملك في هذه الدنيا، كل ما يحب وكل ما يتمنى، لقد تمنى في فترة وجودها معه الكثير والكثير وطمع في الكثير وحقق الكثير واستعد لتحقيق ما هو أهم وأكبر، وهو أن تصبح زوجته وأمًا لأبنائه وسندًا مثلما كانت معه دائمًا.. حتى يموت، لم يستطع أن تبتعد عنه منذ أن عرفها كان يتحدث معهما عن أحواله وأحداثه ويأخذ رأيها في كل ما يتعلق به فقد أحب هذا الرأي من تلك الفتاة، تذكر يومًا أنها استمرت مدة يومين لا يعرف عن حالها أمر، حاول أن يتصل ويرسل الرسائل ولكن لا تصل، أحس يومها كم أحبها وكم سوف يحبها في قادم الأيام، وعندما عرف من سها صديقتها أنها متضايقة وحزينة لوفاة أحد أقاربها، وأنها لا تكلم أحدًا ولا ترد على أحد، ذهب إليها في اليوم التالي ولقى بها أمام كليتها وقام بتعزيتها غير أنه فجأة لم يتمالك نفسه وأخبرها عن حبه وكيف أعجب بها منذ أن عرفها قبل فترة طويلة من الآن وكيف أنه مستعد للتقدم إليها حتى وإن كان في سنة التخرج من هذا العام، بلغ الكسوف بها إلى أبعد درجات الحياء ذلك اليوم، وظلت واقفة مدة من الوقت، لا تعرف ماذا تقول وكيف تكتم سعادتها الغامرة وابتسامتها العابرة التي حاولت بكل جهد لديها أن تخفيها إلا أن استأذنت للذهاب إلى محاضرة متأخرة عليها، فانطلقت وتركته هو والآخر لا يدري ماذا قال

وكيف قال!! ؟

تقف السيارة فجأة أمام مدخل شارع من أرقى وأهدأ شوارع حي الزمالك الثالث، ولم يستيقظ ياسين من سرحانه هذا إلا على صوت السائق...

– وصلنا يا أستاذ.

لك العودة:-

أكثر النهايات ألمًا هي التي تقذف بتوقعاتنا وأحلامنا بعيدًا، وأسعد البدايات هي التي تهدينا الضوء المفقود بداخلنا، وتزرع في أرواحنا الحماسة التي نكمل بها حياتنا، ليس لنا الاختيار بين نهاية شاقة غير متوقعة وبداية مشرقة، بل هو القدر إما أن يهدينا النفس المنتظر أو يغرقنا في بحر المفاجآت.

هل نهاية الطريق وشيكة؟؟! أم أنه أصبح طريق ذهاب فقط لا عودة!!

كان لياسين فرص عديدة في الاختيار وأوقات مهيئة للرجوع، وقد اختار البقاء والوصول إلى اللحظات الحرجة، سارع الأمواج في الثواني الأخيرة وأنقذ نفسه بعد فوات الأوان.. ما فائدة الإنقاذ بعد انقطاع الأنفاس وتوقف القلب!! ما الهدف من إنقاذ الميت غير إكرامه ودفنه!!

يقف ياسين على ناصية بداية شارع مظلم، ولكن تتخلله بعض المصابيح التي تخرج منها خيوط من الأضواء الخافتة التي بالكاد تضيء مساحة ضيقة حولها. لفت نظره هدوء المكان وجماله، هكذا هي أحياء الزمالك القديمة، عمارات شامخة على الجانبين تتقطعها حدائق صغيرة بعد كل مسافة وعلى طول الشارع تجد الأوراق متساقطة وكأن الخريف قد وصل على غير ميعاد.

بدأ يمشي ببطء ويحاول أن يدقق نظره على يمينه ثم يساره وكأنه يحاول العثور على شيء ما، يقرأ اللافتة الأولى التي تظهر أمامه على هذه الأضواء الضعيفة فيقترب؛ ليتأكد من حروفها، فيجد ''الحي الثالث''، يتذكر الرسالة التي وصلت إليه فيتأكد أنه لم يخطئ المكان، يعرف أن الساعة تبلغ العاشرة الآن، ولكن لا يعرف لماذا أراد القدوم؟

ما الذي دفعنا إلى أفعال لم تكن في الحسابات يومًا!! لم تكن المفاجآت نفسها هي المشكلة يومًا ما بل ما في الأمر كله هو أننا لم نتوقعها!!

يكمل في مشيته البطيئة ويستطلع أرقام المباني والعمارات، ويستخرج ما يكتب على اللافتات، فكر في محاولة الاتصال بمريم مرة أخرى فاتصل مجددًا؛ ليجد إغلاق هاتفها مستمرًا فأكمل في طريقه دون أن يعلم إلى أين يأخذه القدر.

القدر والغيب.. المقدر والمعلوم.. الحظ والنصيب.. كلمات ترددت في جوفه طيلة الأيام السابقة، هل ما زالت تتردد؟! أم اكتسح الخوف كل المشاعر الآن؟!

يظهر من على بعد خيال مار على الطريق، يحاول أن يستطلع ملامحه، فلا يعرف له هوية، أهو رجل أم امرأة؟! لم يصرف له بالًا وتركه قبل أن يجئ قد ثبت مكانه ولم يعد يتحرك ومن ثم التفت إليه، حاول أن يقترب قليلًا، فوجده ما زال منتظرًا واقفًا غير متحرك وكأنه شبح ينتظره، اقترب هذه المرة أكثر بعض الشيء وقلبه يكاد يكسر ضلوعه وجسده يهتز كله دفعة واحدة.

يصل أخيرًا ثم يقف فتسقط الأفكار المتداخلة جميعها في رأسه وتتجمد فجأة كل عروقه وتتصارع بقوة ضربات قلبه وتتفتح أعينه وتلمع دون أن ترمش بل تنظر في دهشة وتعجب غير مدركة هذا المشهد أو فاهمة لما يحدث، يدرك عقله للحظة أنه في كابوس ويحاول أن يقنع نفسه بذلك غير أن ما تراه عينه الآن حقيقة

«مريم»!!!!

كانت تقف هي الأخرى وقفة ذهول ودهشة، فلم يرها هكذا من قبل، وقفت عينيها تركز على عينيه وتمزقها بنظرات قوية شديدة، وكأنها تعاتب على شيء ما بل هي حقًا تعاتب وهو لا يفهم المعاتبة، يبتلع ريقه ويتنفس مجددًا، يحاول التكلم،

ولكنه عاجز في ظل هذا اللغز الغريب، يجمع قواه ثم يبدأ في الحديث....

– مريم أنتي إيه إللي جابك ووقفك هنا وبتعملي إيه وموبيلك مقفول ليه؟

كما هي لا تتفوه بكلمة.. تحدق النظر به ووجهها بين الغاضب والباكي والمتألم، وهو يحاول جاهدًا أن يستدرجها للحديث...

– مريم لازم تردي عليا، في إيه؟

– أنت قتلت؟!

سؤال خرج فجأة دون توقع كطلقة من الرصاص اخترقت جسده، وسيعيش باقي عمره يتألم بها، أفكار جمة تدافعت إلى رأسه في وقت واحد، وتطايرت كلها فورًا، إنها اللحظة الحرجة التي يخشاها! وها هو قد وصل إليها!! هل بذلك انكشف أمامها؟! كان يشعر أن هناك أمرًا ما قادم سوف يقتله، ولكن لم يكن يدري أين ومتى وكيف؟

– مريم في حاجات كتير كنت جي أقابلك أوضحهالك، ممكن تستني نروح أي مكان وأفهمك، مريم أرجوكي.

– أنت قتلت؟

– هددوني واستبذوني يا مريم، وإللي حصل غصبا عني!

تخرج منها الكلمات متقطعة وكأنها تشدها للخروج فتأبى، وهو يتلعثم في نطقه، لا يعرف كيف يمكن لإنسان أن يتصرف في مثل هكذا مواقف.

– وضح...ياسين وضح.

موقفه صعب، لم يجد مخرجًا أمامه غير الحديث، يجب عليه أن ينطق وبسرعة..

– من ٥ شهور تحديدًا بعد وفاة سها بفترة صغيرة، كنت مدمر عشان خسرتها، كانت ماتت بسبب حادثة وقبلها بيوم كلمتني، كلامها كله غريب أول مرة تقولي كدة، بحبك وأنا إللي أستاهلك وكلام تاني غريب.. صدتها وحاولت أفهمها إنها لازم تهدى وتعقل وإني بحبها زي أختي وأكتر وإني أعرفها من زمان ومستحيل أخسرها بس هي مفهمتش ده وكانت بتعيط جامد ومنهارة، قولتلها تهدى وقفلت السكة!

– وبعدين؟!

كانت غير مصدقة لما تسمعه فكيف لم تكن تعلم كل هذا!!

– اتصلت تاني وقفلت، قعدت تبعت في رسايل كتير نفس الكلام إللي كانت بتقولوا لحد آخر رسالة.

يتنفس هذه المرة نفسًا طويلًا ثم يكمل....

– هددتني فيها بموقف.. حادثة زمان محدش يعرفها غيري أنا وهي ومالك!

إذا أين هي؟! هي لا تعرف الحادثة، ولا تعرف مشاعر سها تجاهه!! هي لا تعرف شيئًا!! كيف فعل هذا بها!! تماسكت بكل ما عندها من قوة لتسأله مجددا..

– موقف إيه!؟

– زمان قبل ما أعرفك، سها قبل ما باباها يموت كان ليها أرض كاتبها باسمها، «شوقي» جوز مامتها كان طمعان فيها ومامتها كانت بتحبه جدًا كان لاعب في دماغها، حاولت تفرض على سها تبيع الأرض بس فضلت على موقفها لحد لما مامتها اكتشفت إنه معمولها توكيل على الأرض ساعتها سها كانت عندها ٢٠ سنة ويحق لمامتها التحكم في الأرض فطلبت مني المساعدة... روحت البيت عندها بالليل كنت فاكر إن ماحدش في البيت.. كانوا مسافرين، روحت عشان أجيب نسخة التوكيل وأدور على أي ورق مهم يخص شوقي، سها كانت شكة إن شغله شمال...

تزداد دهشتها أكثر فأكثر وتبدأ دموعها في النزول فيسبقها...

– وصلت وبدأت فعلًا أدور ولقيت باب الشقة بيفتح، استخيبيت أنا وهي واتفاجأت إنه «عثمان»، عثمان ده

يبقى الراجل بتاع شوقي وصاحبه قريب منه، كان جي ومعاه واحدة، أتاري القذر شوقي ادالوا مفتاح الشقة اليوم ده وسايبه يدخل البيت ويدنسه، البنت إللي معاه دخلت الحمام، كانت الخطة إن أنا أهرب وهي تفضحه.. حاولت أهرب من غير ما يحس بيا، بس شافني جرى ورايا وبدون قصد ضربته ولما معرفتش أصده طعنته بأقرب سكين جمبي كذا مرة.. نزف لحد ما مات، معرفش أتصرف إزاي، خدته على العربية وكلمت مالك وكان التصرف ندفنه بعيد، حصل فعلًا ده وعرفنا أن البنت إللي معاه هربت.

ما قاله جعلها تقف مكانها ولسانها توقف تمامًا، لا تجد للكلمات طريقًا للخروج.. أما هو فلا بد أن يكمل قصته، لا بد أن يخرج ما في جوفه، فعاد ليكمل..

– شوقي لما عرف خبى على الموضوع عشان شكله وقال إنه ما يعرفش عثمان فين، كان ليه أخت وحيدة رفعت قضية بس من غير أي استفادة لا عارفة هو ميت ولا حي والقضية اتقفلت من يومها. مامتها اتطلقت وجوزها سافر وبعد فترة قدرنا نغطي على إللي حصل أنا وهي ومالك ونرجع نعيش عادي وده إللي حصل فعلًا وعرفتك بعدها!

– طب وحكاية إيمان؟

نطقت أخيرًا؛ لتستفسر منه عن جريمته الشنيعة والتي عرفتها

مؤخرًا عندما وصلت لها رسائل وصور لتنفيذه العملية، لقد خدعوه وحركوه وفضحوه بعد كل هذا..

– العصابة ديه عرفت بأمور سها.. وكل التفاصيل ديه وصلتلهم إزاي معرفش.. سها لما بعتت الرسايل بعتتها متأخر.. معرفش إزاي مع أنها حلفتلي إنها مسحتهم لما صحيت الصبح واعتذرت عن إللي حصل بالليل، الكلام ده كان قبل ما تموت، هددوني وطلبوا مني قتل إيمان وأنا مكنتش عارف أعمل إيه يا مريم!

– تقتل!

– أنا مش هقولك حاجة غير إنك لازم تفهمي، أنا والله بحبك، أنا...

فجأة وجد رجلًا يسير نحو العمارة التي خلفه، نظر إلى اللافتة المعلقة بها فوجدها عمارة ٣٠، علم أنه مسعد، وصل في ميعاده، هل يتم التنفيذ الآن!! الذي دفعهم إلى جلب مريم هنا!! سيدفعهم بالتأكيد إلى فعل فعلتهم وبالتالي سيتهم هو ومريم بالجريمة الثانية!!

ترك كل شيء وأسرع خلفه، يحاول أن يمنعه من الصعود إلى شقته، لم تفهم مريم فجرت خلفه وقبل أن تصل سقطت على الأرض بعد إطلاق رصاص عليها، طلقة واحدة أسقطتها

أرضًا.. دخلت إلى صدرها واستقرت، وقف مسعد مذهولًا وياسين قد سقط على الأرض وصاح باسمها عاليًا، ثم قام مسرعًا ليجري بكل قوته نحوها، ويرى أمام عينه الدماء تسيل منها وهو عاجز وصائح بعلو صوته ''إسعاف بسرعة''، احتشد الناس حولهم وحاول مسعد المحاولة في إنقاذها.

أمسكها بيده ورفعها والدموع تنزل كأمطار الاستواء الغزيرة والسيول المحطمة، يرفعها برفق من على الأرض ويناديها ب''مريم''، الاسم الذي لم يعشق مثله من قبل، والذي سيفقده الآن!

– مريم، اسمعيني، اصحي طب معايا، هتبقي كويسة وهنبقى كويسين، أنا آسف يا حبيبتي والله آسف، مريم خليكي قوية وإن شاء الله هتبقي كويسة، امسكي نفسك أرجوكي!

يقوم من مكانه بكل قوته، ويحمل حبيبته بين ذراعيه، ويحاول أن يجري بها، والجميع يقفون ويصيحون بالإسعاف ويحاولون المساعدة، يجري أحدهم إلى سيارته مسرعًا ويحركها ويجري خلف ياسين محاولًا أن يأخذه لأقرب مشفى ممكنة.

– مريم سمعاني، مريم.

– ياسين!

خرج هذا الصوت يتقطع، سكرات الموت، تشعر بها الآن وروحها تخرج رويدًا رويدًا....

يقف ياسين ويهبط بها على الأرض وهي بين يده وبالقرب من قلبه، ويسمعها تتحدث بصعوبة بالغة؛ لتقول...

– ارجع لياسين إللي أعرفه يا حبيبي. ارجع عشاني..

سكتت فجأة وأحس بالنبض قد انقطع..

فارقت الحياة، وفارقت ياسين، فارقت الدنيا ورحلت، لم تتحدث ثانية، ولم تعد تتنفس!

لقد خرجت تلك الروح الطاهرة البريئة، معها كل الأحلام الممكنة والذكريات، رحلت ولن تعود مجددًا.

وقف ياسين وقد صمت وكأنه أخرس، وشل لسانه، وقفت حياته اللحظة، وأصبح الجميع من حوله مجرد أشباح تتحرك ببطء، توقف الزمن عنده وكأنه في حياة أخرى وكوكب آخر.. اجتمع الجميع حوله وحول مريم وارتفعت صواتهم بلا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قام من على الأرض وتركها ونظر إليها نظرة أخيرة، وابتعد قليلًا قليلًا عنها ثم ابتعد أكثر، والناس يحاولون الوصول إليه ولكنه دفعهم عنه وأسرع في مشيته والدموع لا تقف، لقد انهار وجن جنونه، سار بعيدًا واختفى حين انشغل الجميع بجثة المسكينة مريم، رحل ولا يدري إلى أين فقد ضاع إلى الأبد، ظل يبتعد ويجري ولم يصدق ما حدث، لقد رحل وأخبر مريم وهو يتحدث إلى نفسه أنه لن يتركها مجددًا وأن لك العودة....

الجزء الثاني

«إذا لك عودة...»

وبدأت حرب، المنتصر فيها مغلوب...

عد إلى البداية واصلح كل العيوب...

الآن ما رأيك في الاختيار؟!! هل تجده مؤلمـاً!! هل ستتحمل عواقبه!!

وماذا بعد:-

إلى أين؟! هل سألت هذا السؤال من قبل إلى أحدهم؟ هل طرحته على نفسك؟؟!! ''كيف؟! ''هل طرحت هذا أيضًا؟! هل شغلك يومًا أنه أين وكيف؟! أين المفر وكيف الخلاص؟! أين السلام وكيف النهاية؟! أين الصواب وكيف القرار؟! أعلم أن الأيام قد مرت علينا جميعًا وقلبتنا، بأوجاعها وألقت علينا همومها، لكن الأصعب فيها هو ملاحقتها وصدها، هل تمنيت يومًا عدم المواجهة، وفضلت الاستسلام؟! هل آثرت السكون يومًا لأن جسدك قد انهار من كثرة السهام؟! صدقني هناك من نسوا معنى الخضوع وهناك من لا يفقهوا كلمة رضى، يحاولون التطلع ويصمدون في وجه الأمواج مهما اشتدت على السفن، فهم الأقوياء الذي نظروا إلى النهاية، وأيقنوا أنها بعيدة يفوق بعدها مرمى أنظارهم فتخيلوها بعقولهم وأقسموا على الركوض وراءها حتى وإن كانت في أحلامهم ووقت منامهم.

إذا ماذا بعد؟! ما الذي تحمله الأيام التالية لهذا المسكين ياسين؟! هل تتفق معي أنه حقًا مسكين!! أنه لا حول له ولا قوة، وأنه لولا مرارة القدر، لكان في حياة يستحقها ويحلم بها! لقد اختار المسار الذي يسلكه بنفسه، فكيف يشفق عليه الآن!!

ماذا بعد لكريم؟! من هذا الشخص الطيب المكافح الذي الآن هو وحش مدمر لحياة الناس!!

الثانية عشرة، هذا الوقت الذي تعرف فيه حقًا سواد الليل وترى فيه صفاء السماء، الوقت الذي ينشغل الجميع فيه بالأحلام الهادئة أو الكوابيس المزعجة بدرجات النوم المختلفة، ولكن هؤلاء هم فئة من البشر، هناك آخرون قد كرسوا حياتهم من أجل الشقاء، لا يعرفون للنوم ميعادًا..

تجد أنه من العادي بالنسبة لهم السهر، ليالي طويلة وساعات عديدة وأيام كانت الراحة فيها لا تجد عندهم مدخلًا، هذا هو محمد رضوان مثال على الشقاء والكد وقد تجد النوم لم يقترب من عينيه منذ مدة، أحيانًا تكون يومًا واثنين، ولكنه اعتاد.

يدخل ومعه أمينة وبعض من عسكر المديرية، تجده شارد غاصب الوجه ينظر أمامه وكأنه يثبت نظره على نقطة معينة بتركيز، كأنه يصب غضبه قبل أن ينفجر في أي وقت قاد ولا مجال فيما هو آتٌ لغضبه هذا.. يفكر كثيرًا في الأحداث الأخيرة، يجمع الأفكار ويمشي بخطوة سريعة جادة أظهر فيها معالم الشدة والبؤس، يصل إلى باب مكتبه وقبل أن يدخل يرفع صوته ضاريًا مناديًا على أحد العاملين بالمكان بصوت قوي، وكأن حنجرته قد اختنقت حتى خرجت نبرته دفعة واحدة ”قهوة زيادة يا بدر“، يدخل المكتب ووراءه أمينه، الحركة ازدادت في المكان بأجمعه

والتوتر ازداد، هكذا حال المديرية، عندما نتحدث عن حالة قتل ثانية في خلال يومين.

– عايز حد يفسر لي حالة ثانية في خلال يومين، أنا متأكد إن ليهم علاقة ببعض!

تخرج منه تلك الكلمات وهو يلوح بيده متعجبًا، يضرب كفه بالآخر ويهز رأسه مستنكرًا؛ ليرد عليه الأمين مصطفى...

– مفيش حاجة أكيد يا باشا! كل شيء وارد.

– عايز تفاصيل أكتر عن البنت ديه.

– مريم أحمد عبد التواب خريجة حديثة من إعلام جامعة القاهرة، أبوها دكتور استشاري مخ وأعصاب في مستشفى كبيرة، مخطوبة لياسين محمد هاشم، فيه شكوك إنه كان موجود معاها وهرب قبل ما نوصل!

– شكوك وهرب! كان فيه بينهم مشاكل؟!

يستفسر رضوان باشا وقد كاد أن ينفجر من الغضب!

– لسة موصلناش لأي معلومات يا باشا، ده مجرد استنتاج وكلام كام شاهد، الحادثة بقالها ساعة وشوية يا باشا.

– بأسرع ما عندك يا مصطفى، أنا متوقع حالة تالتة بكرة، ديه عصابة!!

– تحت أمرك معاليك فيه عدد شهود كويس ممكن يفسرولنا كتير وهنستنى الطب الشرعي وبأسرع ما عندي يا باشا.

– متفوتش يا مصطفى، وعايز أوصل لخطيبها بأسرع وقت ممكن!

– حضرتك طب كنت لسة هناك، مفيش حاجة تقدر نمشي وراها؟!

– لا ومش عارف ليه متأكد إن الجريمتين ليهم علاقة ببعض!!

فجأة، صوت طرق الباب يقطع هذا الحديث ليدخل أحدهم بعد أن أذن له رضوان، وإذا به بدر، أحد رجاله المقربين المخلصين.

– باشا رضوان، تعاليمات سيادتك اتنفذت يا فندم وكان عند حضرتك حق، شقة باسم مسعد حافظ في العمارة إللي قدام الحادثة تم سرقة مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه تقريبًا على حسب كلامه، ومفيش أي أثر للي نفذ!

يترك المتحدث ليعود بنظره مرة أخرى للأمين..

– مش قولتلك يا مصطفى سرقة وقتل تاني نفس الحكاية بتتكرر!

يكمل المجند بدر حديثه مجددًا!

– وفي حاجة بقى غريبة يا باشا!

– إيه يا بدر اتكلم.

– الورقة ديه لقيناها ساعدتك على المكتب إللي في أوضة مكتب مسعد قريبة من الخزنة!

يخرج من جيبه ورقة قد طبقها وأحكم تطبيقها حتى يسلمها له، فيقوم بفتحها ويعطيها لمحمد باشا الذي ينتظرها بشغف، فيتناولها ويبدأ في القراءة، فإذا باسم أسفل صورة شاب وجملة «هكذا تتحقق العدالة» بخط عريض أسفلهم، فيندهش وينظر لأمينه والمجند بدر...

– مين كريم ده؟!

إلى اللقاء:

الثانية عشرة والنصف، ويأخذنا المشهد إلى مشفى شجرة الدر وتحديدًا المشرحة حيث يدخل أحمد عبد التواب وهو ثابت الخطى هادئ الحركة لا يعرف كيف وصل إلى هذا الثبات وهذه القوة، أن تدخل مشرحة وخزان جثث ما يسمى بـ''الثلاجة''هذا لأمر مخيف، أما أن تدخل لأنه قد طلب منك التعرف على ابنتك، فهذا هو الألم كله، يقف لحظة أن طلب منه الممرض وبهدوء وعلى ضوء مريب خافت يزيل الغطاء الخفيف عن وجهها والذي هو أشبه بالكفن، ليرى صورة نجلته وقرة عينه

وتنزل الدموع دمعة تلو الأخرى، فيأتي إليه أحدهم ويطبطب على ظهره بخفة، ويأخذه من يديه خارجًا حيث تنتظره زوجته والتي لم تستطع الدخول وظلت تبكي في صوت شبه مسموع، لم تصرخ ولم تنهر فهي امرأة مؤمنة وتعلم يقينًا أن ابنتها كل ما تحتاجه الآن هو الدعاء، ورغم قلبها الذي يحترق وضلوعها التي تكاد تتفجر وعروقها ودمها الذي يكاد يتجلط فإنها قوية هادئة في يدها مصحفها وعينها تفرغ دموعًا دون توقف. ومع ذلك تقرأ في صوت ناعم خفيف وحولها من يسندها ومن جاء ليقف بجانبها.. وإخوة مريم الثلاثة. يخرج الآن الدكتور أحمد وهو أيضًا رجل ذو يقين وصلاح ليصل إلا امرأته، فتنظر إليه وكأنها تستنجد به، فما إن وقع نظره على نظرها وعينه على عينها إلا أن قامت ومشت نحوه ثم احتضنته بكل ما عندها من قوة في مشهد غريب عجيب من أسمى مشاهد الحب والألم، نست أنها قد تخطت الخمسين من عمرها وذهبت بكل ما تبقى من طاقتها كي تستمد طاقة أخرى من زوجها، ولم يفعل الآخر غير أن قبل رأسها وهمس في أذنيها "كانت بتضحك، والله كانت بتضحك"، ...

هؤلاء هم الفئة المؤمنة الراضية الذين إن أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون.. الذين يمنون أنفسهم بالجنة ويصبرون أرواحهم بنعيمها.. طمأن زوجته أن ابنتهما بين يدي عزيز رحيم، تنعم في حياة أخرى تبتسم بلقاء ملاك عظيم فهدأت

واطمأنت ودعت أن يجمع الله بينهما يومًا من الأيام..

نذهب إلى الشقة المظلمة والتي تحتوي على القليل من الأثاث، الكثير من الأوراق والأجهزة، مغلقة تمامًا حتى هواء الشتاء البارد لا يصل إليها، يجلس كريم وسيجارته على شفتيه يأخذ منها نفسًا عميقًا وكأنه يحارب شيئًا في نفسه ويصد أمرًا ما بداخله، لا يقف عقله عن التفكير ولا إحساسه عن الندم أو الانتقام أو كليهما، يبدو وكأنه ينتظر شيئًا ما أو شخصًا ما ومن غير سنارة يأتيه في هذا المكان المريب، بالفعل ما هي إلا دقائق حتى أطرق سنارة الباب الخلفي، فيقوم ويفتح له وبدون حديث أو تحية أو سلام يتركه ليدخل ويعود هو إلى جلسته وسيجارته التي وصلت إلى نهايتها، ولكن لا مشكلة في ذلك، يأتي بأخرى ويشعل النيران ويبدأ بسحب أنفاسها ثم إخراج دخانها وهكذا الحال... يدخل سنارة وهو هادئ تمامًا ليس على حالته المألوفة وكأن في قلبه ما يخفيه وفي صدره ما يحمله وكأنه غير معجب بحاله وما وصلت إليه الأحوال، لا يشغل خاطره غير صغيرته التي تكبر يومًا بعد يوم أمام عينيه وتحلو في أنظار الناس، أما هو فينهار يومًا بعد الآخر، ويعلم جيدًا أنه في أي لحظة من الممكن أن يكون سجينًا أو هاربًا أو تائهًا في أرض الله، وهي مسكينة وحدها لا ذنب لها ولا سند، ولا تعرف غيره تقريبًا في هذه الدنيا، يأتي الآن الاختيار وتأتي الحيرة ويظهر العجز... هل يكون الأب المرغوب والمثل المطلوب؟! أم يزيد من خسارته ويعمق من جراحه؟! يغمض

عينيه ويعود؛ ليفتحهما في الحال وينظر عاليًا وتخرج كلمة من فمه لم تخرج تقريبًا في حياته بهذه القوة وبذلك الألم... ''يا رب!''

– أنا تعبت يا أستاذ كريم!

لم يتوقع كريم هذه الجملة وتلك النبرة في هذا الوقت بالذات، كأنه أراد أن يقولها ولم يجد من يخبره بها، وعندما سكت وكتمها في نفسه وجد غيره ينطق بها ''أنا تعبت''، كم تمنى أن يرتمي بين أحضان زوجته ويخبرها بأنه قد أثقل الهم أكتافه وأنه قد تعب، كم حقًا حاولت أن تفهم منه ما به وما يحبسه بداخله ولكن قرر واختار ولا عودة في قرار أو اختيار! ينظر إلى سنارة بعدما انتظر أن ينتهي نفسه الأخير ويطفئ ما في يده...

– مفيش حاجة تاني يا سنارة خلاص، ارجع ربي بنتك وشوف الحلال وامشي فيه، كفاية كدة!

– مين إللي قتل البنت ديه؟! وإيه ذنبها؟!

– يعني هو كان مين قتل إيمان وكان إيه ذنبها؟!

– ملهاش ذنب بس أبوها راجل ومفتري ومعاه فلوس بالهبل وأنت قولتلي إنه يستاهل!

– وأنت سمعت كلامي يا سنارة زي ما أنا سمعت كلام نفسي!

– وبعدين؟!

– ولا قبلين! ارجع امشي صح زي ما كان نفسك وأهم حاجة تنسى إنك كنت تعرفني وصدقني مش هتعرف عني حاجة تاني!

– وأنت رايح فين؟!

تصلب كريم وعجز لسانه عن إكمال هذا الحديث بعد هذا السؤال، وكأنه لا توجد إجابة في نفسه أو كلمات في رأسه كي ينطق بها، ثم تذكر فجأة شيئًا جعله ينظر لسنارة في حدة وقلق، وجعل الأخير يندهش من تلك النظرة ويستنكرها، وقبل أن يحاول سنارة فهم الأمر وما جعل كريم بحالته هذه فجأة، سبقه كريم في استطراد

– الورقة إللي جبتهالي قبل كدة! مشوفتش زيها!!

– لا خالص أو مأخدتش بالي بس لا لا مكنتش موجودة.

يعرف سنارة أنه اضطر للكذب ولكن لا يعرف سبب الاضطرار، هو لم يبحث عنها ولم يعطِ لها بالًا، بل إن كل ما شغل باله وقت سماع إطلاق النيران هو الركوض باتجاه النافذة واستطلاع الأمر، فقد كان الاتفاق على إتمام السرقة وأخذ ما في الخزنة من أموال قبل أن يصل مسعد ثم إن قتله سوف يتم بواسطة شخص مجهول لا يعرفه سنارة، فلم يرغب كريم في إعلامه بالأمر، فما كان منه إلا أن أسرع وخرج من الشقة وهرب ولم يرَ ورقة ولا غيره ولكنه اضطر الآن إلى الإنكار ولا يعرف،

هل فعل هذا حتى يسكت كريم وينهي الأمر؟! أم خوفًا منه! أم ماذا؟! ولكن كل الذي يعرفه هو أنه قد ازداد تعبه ولم يعد قادرًا على المواصلة، ففضل أن ينهي الأمر وألا يعود إليه مرة أخرى.

– متأكد!

لم يصدق كريم كلامه وقد أحس بأن في الأمر شيء خافي، ولكنه يجهله.

– أيوة متأكد متأكد.

تائه:-

أنا الغريب تدب قدمي على أرض لا أعرفها، أنا التائه في حواريها أحاول التعرف على مدنها. أنا المختفي منذ زمن، هل تعرف لي طريقًا؟؟

تقترب من الواحدة، وكأن الساعة أصبحت كالوحيد الذي يعمل ولا يمل، يتعب ولا يتوقف، ولكن لا يرمي له أحد بالًا ولا يعيره اهتمامًا، فبالنسبة للكل أصبح الوقت يجري كأنه المتسابق الوحيد على الملعب، فقد توقف الزمن منذ مدة عندهم ولماذا نفكر في الوقت ونحسب مرور الزمن وقد ضاع مستقبلنا الذي لطالما حلمنا به وانتهت حكايتنا التي كنا دومًا نقصها، لماذا نتكلم عن الوقت الذي ضاع في عقولنا وضاع معه يوم ما زلنا

نتذكره ولحظة ما زلنا نؤمن بها...

يمشي ياسين وهو يسند يديه على أحد الجدران بجانبه، تسبق إحدى قدميه الأخرى ثم تلحق بها الثانية حتى يكونا على مقربة، يشبه في مشيته الكسيح، أحيانًا يعرج وأحيانًا يرفع رأسه ويقف برهة حتى يلقي بنظره ويفسر المكان والطريق، يحاول ألا يرى أحد وجهه، فيرق قلبه لحاله، ويحاول مساعدته، هو ليس بالمسكين الشحاذ بل إنه يرفض المال والطعام.. يرفض الحياة.. لذلك لم يرد أن يرى أحدًا أو أن يراه أحد وتمنى لو أن الأرض ابتلعت كل البشر، ولكنه قد أعاد تفكيره ثانية فتمنى أن تبتلعه هو.

جالت كل الأفكار تلك في رأسه وتصادمت في الوقت الذي رفع هامته عاليًا ونظره الضغيف فقد فتح عينيه بصعوبة بعد كل هذا البكاء..

كانت الساعات الماضية بالنسبة له مشهدًا مخيفًا صادمًا في فيلم واقعي.. فيلم قد عاش معه منذ قليل وسيكتب عنه أنه مستوحى من قصص حقيقية.. كان يهرول راكضًا بين الطرقات، لا يعرف طريقًا أو مسارًا يسلكه كالمجنون الهارب من مشفى الأمراض النفسية.. عينه كانت تزفر دون توقف كأنها ماسورة رئيسة قد انفجرت كالشلال.. كيف سقطت أمام عين وكيف كانت تتألم وترحل ببطء، وهو عاجز عن فعل أية الأشياء لها بل وإحساسه كله ذنب تجاهها!!!

يجد أمامه بوابة كبيرة قد أدهشه قليلًا هندستها وزخرفتها فيوجد في جزئها العلوي منحنى دقيق الانحناء قد أخذ شكل النصف دائرة، غير أنها مصنوعة كاملة من الحجارة العتيقة، وقد عانى في رفع رأسه والنظر إليها نظرًا لضخامتها وحجمها، أنزل رأسه ليجد طريقًا حجريًا وأنوار متلئلئة في كل مكان، لم تكن كثيفة، لكنها كانت بارزة لمن يقترب منها وكأن الساعة لم تتخطَ العاشرة.

أكمل في مشيته المتعرقلة حتى وصل إلى مكان قد بدا له بالفسيح بعد أن تنقل بين الأماكن الضيقة والأزقة القديمة. يقف مرة أخرى وكالعادة ينظر لأعلى؛ ليكمل الاستكشاف ولكن هذه المرة بعد أن سمع بأذنيه صوتًا هادئًا مترنمًا، دقق سمعه حتى وصلت إليه إحدى آيات القرآن الكريم تخرج من سماعات لم يصل أليها مرمى بصره ولكنها قد نزلت ضيفًا في قلبه، اقترب أكثر من الصوت حتى استطاع أن يحدد الآيات، فعرف أنها ما تيسر من سورة التوبة فقد كان قارئًا للقرآن وحفظ عددًا من أجزائه، حرصت أمه رحمة الله عليها على ذلك في صغره، بدأ في فتح عينيه كاملتين بعد مجهود كبير ليرى أمامه ما يجعله يقف ساكنًا دون أي حركة، وينفطر قلبه لحظة وقوفه، مرت ثوان على وقفته تلك بدأت أثناءها عروقه في التجمد وقلبه في الاضطراب، ولم يشعر بنفسه حتى سقطت إحدى الدموع على خديه، توالت الدموع عندما شعر بجمال هذا المكان وروحانيته، فقد أيقن

أنه أمام مسجد الحسين، وتذكر أنه قد أتى هنا مرة في طفولته كما أنه قد أتى مرة أخرى مع مريم منذ عام تقريبًا، قام بمسح دموعه بكمه وبدأ يمشي حتى بوابة المسجد، اشتدت الرياح في هذا الوقت المتأخر من الليل، فحاول أن يلف ثوبه على جسده الذي بدأ يرتعد من البرد، وقف ينظر خارج المسجد على منظره من الداخل الذي بدا واسعًا عظيمًا، كثرت فيه الأعمدة، ولم يستطع مد بصره؛ ليصل لآخر البناء، نظر إلى أعلى خارج المسجد؛ ليجد الأضواء لامعة مضيئة ترسم اسمًا اعتلى هذا الجدار الحجري القديم، إنه لفظ الجلالة.. «الله».. خرج من حنجرته صوت خفيف عميق، ولكنه أقوى من الفولاذ، هذا الصوت وهذه الكلمات التي تهز القلوب وتثبت العزيمة... ''الله''

خلع حذاءه ودخل المسجد، علم أنه غير طاهر وغير جاهز للصلاة، بحث عن أقرب دورة مياه ولكنه لم يتمالك نفسه حتى يصل وعاد للبكاء من جديد، فقد اختلطت مشاعر الحزن على الأحداث الأخيرة مع جمال هذا المكان وهدوء كل ما فيه لتخلق مزيجًا من الخوف والرهبة بداخله، وامتزاجا آخر بين الحزن والأمل، وقف مكانه ونزل مرة واحدة على ركبتيه ليجلس عليها ويديه على وجهه يخفي دموعه وأنينه العميق ثم سقط ساجدًا وانفجر في صيحاته الداخلية غير المسموعة وكأنه راح إلى ربه بقلبه ورمى نفسه ولم يعد ولم يشعر بمن حوله، تذكر الأيام الأخيرة وكيف تغير حاله؟ كيف دنس يداه الطاهرة وسار وراء اختياراته المضللة

والتي حتمًا سيدفع ثمنها غاليًا؟ كيف أبدى هذا الثمن بحبيبته الوحيدة في تلك الحياة؟ كيف خسر مريم وسقطت أمام أنظاره؟

رب هل تسمعني؟ هل ستنقذني؟ لقد خفقت وأخطأت وأنت أعلم بي! لقد خسرت ولم أعد أرغب ولم أعد أريد!

دار كل هذا في خاطره وترددت على لسانه تلك الأدعية والابتهالات حتى أحس بظلام في عينيه، ولم يشعر بنفسه بعدها، سقط مغشيًا عليه.. وتوقف الزمن...

هدف آخر:-

استيقظ ياسين؛ ليجد نفسه طريح الفراش في مكان غير معلوم، الوقت صباحًا وهو لا يعرف ماذا حدث وما الذي أوصله إلى هنا، قام من مكانه وقد أحس بالإرهاق في كل جسده يحاول الوقوف على قدميه والسير في هذا المكان..

– إيه استنى يا بني على مهلك!

وصله هذا الصوت من بعيد.. صوت شيخ يبلغ الخمسين أو أكثر من عمره.. اقترب المتحدث حتى وصل إليه وأسنده حتى قام وجلس أمامه على الفراش.. نظر إليه وهو يكشر وجهه وكأنه يستفسر عن المكان والزمان وماهية هذا الرجل..

– هو أنا فين؟

– أنت في بيتي، أنا اسمي أنور، عمك أنور.

كانت لحيته كثيفة، ظهر على وجهه الطيبة والوقار والإيمان، ارتاح له بعض الشيء لكن هذا لم يمنعه من قوة حديثه وشدته..

– أيوة بردوا إيه إللي جابني هنا!

– أنت كنت تعبان وفجأة اغمى عليك في المسجد وأنا شوفتك قررت أجيبك هنا! ترتاح شوية!

عاد عقله إليه سريعًا وتذكر الحسين والليلة الماضية.. كم كانت صعبة! تذكر مريم فأدمع لحظة ثم عاد بوجهه للشيخ مرة أخرى..

– وليه مودتنيش المستشفى أو طلبت الإسعاف؟

– معرفش مفكرتش ساعتها غير إني أجيبك على هنا وده إللي عملته! وبعدين كان باين عليك الإرهاق والحزن.. كنت محتاج ترتاح..

– أنا لازم أمشي.

– طيب فهمني بس، أنت كان مالك! فيك إيه؟! وبعدين باين عليك التعب لسة، استني ارتاح شوية!

– أنا عايز أصلي.

اندهش العم أنور من هذا الطلب غير المتوقع، ولكنه في نفس الوقت ازداد فضوله لمعرفة ما يجري مع هذا الغامض الغريب، وقف من مكانه وأرشده لمكان الوضوء وأوصل إليه منشفة وانتظر بها خارجًا.

– أنا عايز أغتسل!

زادت دهشة الشيخ مرة ثانية، ثم شاور إليه أي " تفضل».. فأغلق ياسين الباب وبدأ يتطهر.

مرت حوالي عشر دقائق، خرج بعدها ياسين وهو يشعر بالراحة بعض الشيء، أعطى له العم أنور سجادة، وقام بفردها، ثم سأله عن الساعة فأجابه أنها التاسعة صباحًا، بدأ يصلي في هدوء ركعتي الضحى، كل هذا ويتأمله أنور ساكتًا منتظرًا، وما إن انتهى حتى بادره الشيخ...

– حرمًا يا بني!

– جمعًا! إن شاء الله

– يابني أنا زي والدك، لو حابب تتكلم وتخرج إللي جواك، هيسعدني أسمعك، ويسعدني أنصحك!

– عارف يا شيخ.. باين عليك راجل عارف ربنا وطيب.

– طب يابني اتكلم وأنا هسمعك!

– ساعات في حاجات إن تبدا لكم تسؤكم!

– يابني لازم تبقى عارف إن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين...

رد ياسين سريعًا ليكمل ما بدأه أنور..

– التوابون يا شيخ أنور، وعشان كدة أنا لازم أتوب وأكفر عن سيئاتي وأعمل الصح إللي أصلح به كل غلطة غلطتها ولو إن مفيش حاجة انكسرت ينفع تتصلح!

– لا لا اوعى يا بني تقول كدة، ربنا كبير وكل حاجة ممكن تتصلح، أنت تقدر تصلح!

– أقدر أرجع ميت من الموت يا شيخ!!

صمت الشيخ برهة وكأنه عاد بخاطره ليتذكر ألمًا بداخله.. تذكر ابنه وقرة عينه الذي رحل وهو لم يقدر على فعل أي شيء له، مرض السرطان اللعين الذي قبض روح هذا الشاب اليافع «حسام"، كان وقورًا مثل أبيه وطموحًا مثل باقي الشباب في عمره، كان يحلم بدخول كلية الطب والالتحاق بها حتى يصبح معالجًا لأمراض المسلمين، ويخفف عن بني الآدمين وجعهم، ولكن الوجع قد قضى عليه، وهو لم يبلغ العشرين...

جلس الشيخ، ثم قال لياسين..

– لو كنا نقدر نرجع الميت، كنت هبقى أنا أسعد خلق الله

دلوقتي يا بني!

أحس ياسين بالأسى الذي يعانيه هذا الرجل، وشعر به فقام حتى وصل إليه...

– هون على نفسك يا مولانا، كلنا بنخسر وكلنا بنصبر!

ثم أكمل وهو ينصرف....

– ادعيلي يا شيخ، محتاج دعاءك، داخل على مجهود كبير ولازم أصفي حسابات كتير!

نظر نظرة أخيرة إليه قبل أن يغلق وراءه الباب، وابتسم له الشيخ بعدما انفجر في البكاء...

– ربنا معاك يا حسام! ربنا معاك يا بني!

استطرد ياسين هذا الاسم لوهلة واندهش منه، ولكنه أعاد الابتسامة بواحدة مثلها، ثم أغلق الباب وانصرف ليعود لواقعه من جديد، ويعود مرة أخرى ويتحرك الزمن!

مسائل معقدة:-

العاشرة صباحًا، ينتظر محمد رضوان في مكتبه شيء ما ولكنه ترك الأوراق التي تكاثرت تحت يديه والملفات التي تراكمت في كل مكان وأغمض عينيه لدقائق معدودة، فلم يذق طعم الراحة

منذ يومين على الأقل، لقد كان يومًا غير رحيم بالمرة على الكل، كان يفكر هذا الضابط في الكثير من الأمور المتداخلة والمتشابهة والأسئلة التي لم تعطِ له أي إجابة مع طرحها، وكأنها تترك له الإجابة، وتقول ''أجب بنفسك''، من ياسين ومن مريم تلك؟! ما القصة المريبة التي أخفاها كل منهما؟! ما علاقتهما بمقتل إيمان وما الذي أتى بهما عند بيت مسعد؟!

لا يعرف من أين يأتي شعور أن كل هذا مرتبط ببعض وأن تلك الأسئلة لها إجابة واحدة، الإجابة التي سوف تفك شفرة باقي كل الإجابات، فكر قليلًا ثم قالها ''كريم!''، من كريم هذا؟ كثرت الأسماء وتعقدت الأمور، وحلها ليس بالأمر السهل....

وقف مصطفى خارج الباب وقد طرقه مرة أو مرتين، لكن رضوان باشا لم ينتبه إليه، طرقه مرة أخرى فأذن له بالدخول...

– يا ريت أخبار كويسة يا مصطفى!

– خير يا باشا إن شاء الله، قبل أي حاجة وأنا جاي دلوقتي لحضرتك قابلت أيمن باشا وسألني عن أخبار القضية، أنا طبعًا قولت إن شاء الله خير وربنا يسهل والكلام ده.

– سيبك خش في المهم.

بدأ الأمين مصطفى في سرد ما وصلوا إليه..

– بالنسبة للبصمات معاليك فهي بتترفع في المكان كله، البيت

والمكتب والخزنة، ده غير إن فيه عدد من الشهود مش كتير بس ممكن نوصل معاهم لحاجة، اتنين رجالة وواحدة ست، بس إللي كان شايف قبل عملية القتل واحد بس من الاتنين الرجالة، اسمه أحمد دكروري، بنجمع بيانتهم وهعرضهم على حضرتك في أسرع وقت!

– يا ريت أسرع من كدة يا مصطفى يا ريت!

– حاضر معاليك! أما بقى بالنسبة لكريم...

– أيوة مين كريم ده بقى وإيه قصته؟!

فتح الأمين مصطفى التقرير أمامه وشرع في الحديث عن كريم والمعلومات عنه ..

– كريم ده موضوع لواحده يا باشا، اسمه الثلاثي كريم محمد الشرقاوي، أبوه مات في حادثة عربية وهو عنده سنة وأمه فضلت معاه بعدها.. الغريب إن بعد أول كام سنة من موت أبوه كانوا عايشين مرتاحين بعدها بأربع سنين كمان بان عليهم الفقر لحد ما أمه اشتغلت وبقت تصرف عليه..

– يمكن معاش أبوه كان مقضيهم أو كان سيلهم فلوس؟؟!

– كل التحريات معاليك بتقول إنه لا عنده أملاك كتير ولا وارث، مجرد موظف في مصلحة الضرايب شقيان..

– طب كمل!!

قالها محمد رضوان وهو يتعجل لمعرفة كامل أسرار هذا الشاب..

– أمه ماتت وهو عنده ١٢ سنة، وحياته اتنقلت لدار أيتام لمدة ٤ سنين تقريبًا.. بعدها تكفل بتربيته «سامح هشام» رجل أعمال كبير وملوش أي علاقة بيه المفروض وإللي وصلي كمان سعادتك إن الشركة إللي كريم ماسك فيها مجلس الإدارة وشغلها كله هو تمويل سامح هشام وله أكبر نسبة من الأسهم!

– والعلاقة إللي ما بينهم عاملة إزاي؟؟

– لسة منعرفش حاجة عن تفاصيل العلاقة دلوقتي يا فندم بس شغالين بإيدينا وسنانا!

– هو سامح ده عنده ولاد؟؟

– لا معاليك بنتين وكريم متبنيه!

– أنا مش عايزكوا تناموا يا مصطفى، ماشي؟ وكل حاجة طلبتها تكون على مكتبي في أسرع وقت!

– أمر معاليك، حضرتك أستأذن أنا؟

– ماشي اتفضل وسيب الباب مفتوح، أنا جي وراك، ورايا مشوار مهم.

في هذه اللحظة تتأكد أن العقدة قد ضاقت أكثر وصعبت وأصبح فكها مروعًا، ولكن ما زال هناك الكثير!

ينادي أحدهم بتجهيز السيارة ويأخذ رشفة من القهوة التي كان قد نسيها ثم ينصرف...

استغرق طريقه ما يقارب الساعة، وصل أخيرًا إلى هذا البيت المتواضع، ولكن زخرفته وبساطته الخارجية تؤكد جمال الأرواح التي تسكنه. نزل محمد رضوان من سيارته والتي وصلت دون إزعاج أو أصوات عالية فقد احترم الحزن الذي يسيطر على المكان والحزن الذي يسكن نفسه وقلبه، تقدم لوحده وطرق الباب بخفة وهدوء وانتظر حتى فتح له رجل من الواضح أن البكاء والشدة قد أهلكته، ولكن الإيمان جعله ما زال صامدًا وواقفًا، وإلى متى يظل الإيمان سورًا منيعًا؟!

– مقدم محمد رضوان، مباحث أمن القاهرة، أولًا البقاء لله خالص التعازي، ممكن أتكلم مع حضرتك شوية؟

– آه طبعًا اتفضل حضرتك ونعمة بالله.

دخل محمد رضوان وبسرعة أخذ يتفحص المكان من حوله، ما زالت البساطة والرقي يسود البيت من الداخل، ولم يجد ما يفيد قضيته، قطعه صوت أحمد عبد التواب...

– اتفضل محمد بيه، تشرب إيه؟؟

– شكرًا جدًا يزيد فضلك، ملوش لزوم خالص، أنا بس جاي أعمل الواجب وأعزي، أنا عارف إن الحادثة لسة معداش عليها كام ساعة بس ده واجب بردو.

– شكرًا جدًا لمعاليك ديه الأصول بردو.

– عايزك تتأكد إن مريم ديه كانت بنتي بالضبط، أنا ربنا مرزقنيش بالخلفة وبنات وشباب الناس بعتبرهم ولادي وحقها صدقني هو حقي!

– الله يرحمها ويحسن إليها، أنا واثق إن حقها هييجي وواثق فيكوا والله يا محمد بيه.

الرضا والثقة، يثق في قدرة الله، ويعرف أن الحق سيأتيه ولو بعد حين.. أما محمد رضوان، فعقله لا يصدق اختلاط المعلومات والأمور، من هذه الأسرة المؤمنة الكريمة؟! ثم كيف ماتت ابنتهم هكذا وما دخلها بالفساد والقتل والوحشية تلك؟!! يسبق كل هذا التفكير لسانه وهو ينظر للأب الحزين قائلًا..

– ربنا يقدرنا إن شاء الله! معلش لو هزعجك في السؤال، بس هي مكنتش مصرحاكوا بحاجة أو قالت أي حاجة قبل ما تنزل؟ قالت طب هي رايحة فين؟!

– والله حضرتك أنا مكنتش في البيت، كنت في العيادة اليوم ده والمفروض كنت هرجع متأخر، بس من كلام مامتها إنها

كانت رايحة تقابل ياسين في المكان إللي دايما بيروحوه في الدقي.

– ياسين ده خطيبها صح؟؟

– اه بالظبط هو، وفرحهم كان قريب أوي.

لم يتمالك نفسه تذكر موعد الزفاف وأزرف القليل من الدموع، لكنه سرعان ما مسحها وعاد ليكمل الحديث...

– طب وأنت كان رأيك إيه في ياسين ده يا دكتور؟؟

– والله حضرتك إنسان كويس وشاب محترم وطموح، كنت عارف أبوه راجل صالح ومعرفته كنز، وبصراحة مريم الله يرحمها كانت بتحبه أوي!

– أنت عارف إن ياسين كان معاها في الزمالك وقت الحادثة؟؟

– غريبة! إيه إللي وداهم هناك!!؟

– أهو ده السؤال إللي نفسي أجوبوا.. قريب إن شاء الله هنعرف، يا ريت حضرتك وصل التعازي لوالدتها، وأنا بستعجلهم في الطب الشرعي والفحوصات وإن شاء الله في خلال يومين أو أقل تقدروا تصلوا عليها وتدفنوها!

– كتر خيرك يا بني وربنا معاكوا!

اهتزاز:-

الواحدة ظهرًا وها قد بدأ الدفء يغطي بقاع الأرض في تلك الساعة، وعادت أشعة الشمس تمن على الهائم والماشي والمترجل بقليل من الحرارة في جو هذا الشتاء النقيض، لم تكن هناك مهام لكريم في هذا اليوم، فقد فضل البقاء في بيته وانتظار الجديد والغامض في الساعات القادمة، ولم يكن الخوف قد تملك سنارة وحده، بل إن الرعب كله قد اتجه في طريقه نحو كريم، ولم يجد طريق العودة فاستقر في قلبه منذ ساعات.

تقدم نحو غرفته بخطوات حاول جاهدًا وضع فيها الثبات حتى لا يشعر المسكينة التي يسكن قلبها حبه ما به من مصائب وما آل إليه من تعب، ولا تهتز مكانته عندها والتي حتمًا اهتزت في نفسه للأبد.

يفتح ببطء شديد الباب ويدخل مبتسمًا، فيجد سارة وقد نهضت من نومها نشيطة وتجلس أمام مرآتها تمشط شعرها الغامق الحرير وقد ابتسمت هي الأخرى، عندما وجدته في مرآتها خلفها وأكملت تزينها وأخفت ما بداخلها القلق الذي تحمله منذ أيام، تقدم نحوها وعانقها، وهو يهمس في أذنيها...

– على فكرة أنتي زي القمر.

لم تفعل سوى أنها ابتسمت من جديد وقد أمسكت بيديه

بقوة وكأنها تطمئن نفسها مرة أخرى.

– سارة ممكن أسألك سؤال؟

– اتفضل يا حبيبي!

– لو طلبت منك بكرة مثلًا الصبح نسافر نسيب البلد ونعيش في أي مكان واشتغل أي حاجة برة بشهادتي، رأيك إيه؟! وهتقولي إيه؟

تركت ما بيدها ونظرت قليلًا إليه من المرآة قبل أن تلف نفسها وتنظر في وجهه.

– لو في أي مكان في الدنيا أنا هبقى معاك، قررت زمان أكون معاك ولحد لما أموت أنا معاك، الحاجة الوحيدة إللي خايفة منها إن أنت متكنش عايز تبقى معايا وخايف على وجودي زي ما أنا خايفة على وجودك.

لا يعرف ماذا حدث؟! ولكن كلماتها لمست كل ركن من أركان قلبه حتى وصلت إلى صميمه، وبدلًا من هدوء القلب وراحة البال التي سعى لها عندما دخل عليها فقد زاد رعبه واهتز من جديد، تمنى لو استطاع أن يعانقها مرة أخرى بشدة ويقول ''أنا مبقتش بخاف غير على وجودك''، ولكنه اكتفى بالعناق ونزلت دموعه أخيرًا وهي لم ترها.

مسحها بيده وعاد ليبتسم وهو ينظر لها ثم أمسك مشطها

وبدأ في فرد شعرها الناعم في حنان ولين وهو على حالته تلك.. لم تجده عليها من قبل.

في إحدى الشوارع المضطربة والأماكن غير المعروفة، يتمشى وهو يرتدي سترة ثقيلة قد غطت عنقه وزراعيه وبها غطاء غطى به رأسه وقد نظر إلى الأرض وبذلك أخفى وجهه عن أعين السائرين بجانبه والناظرين حوله، يرفع بين الحين والآخر نظره حتى لا يضل الطريق أو يتعثر. وصل إلى محل هواتف يبدو بسيطًا وصغيرًا، دخل هذا المكان وقد رفع رأسه ثم ابتسم للبائع الذي تواجد به...

– أهلًا وسهلًا، اتفضل حضرتك!

أسقط من على رأسه ما كان يغطيها ثم أجاب.

– كنت عايز خط جديد وموبايل بس يكون "smart" لو سمحت.

– من عيني يا افندم، تحب حضرتك نوع الموبايل إيه والخط كمان؟

– أي حاجة مش فارقة!

بدأ الشك يدب في إحساس الرجل البائع، ولكنه أكمل ولم يبد أي اهتمام.

– تمام طب حضرتك محتاج تديني اسم حضرتك والرقم القومي بس بعد إذنك!

– اه أوي أوي، ثواني!

أخرج من جيبه بطاقة رقم قومي وبدأ في قراءة ما عليها....

– حسام، حسام أنور عبد الحميد واتفضل حضرتك اقرأ الرقم القومي عشان متتلغبطش!

– تمام يا فندم.

أكمل الرجل بياناته وفتح هاتفه بعد أن وضع الخط بداخله وقام بتشغيله، ابتسم له ياسين ودفع له ما يرضيه ثم أخذ مشترياته وانصرف.

كم من الوقت مر؟

إنها الثالثة عصرًا وما زالت الأجواء في دفء يوم مشمس غير معهود منذ أن بدأت عواصف الشتاء الثلجية، يوم ترى فيها أضواء الصباح المنزلية وهي تنبعث من شرفات البيوت، فتزيدها حسًا وروحًا.

لم يكن هذا حال مالك الذي أسرف في التدخين والهروب المتكرر الليلة الماضية وقد غاب عن الوعي لساعات، ما زال

ينام في سريره غير مكترث بالأجواء ولا الأحداث بل هو في ثبات عميق، لم يدرِ بشيء من حوله.. وصلت أمه للمنزل فوجدته كعادته في انهيار واضطراب، فأقنعت نفسها بشباب ولدها وسنه الراهن.. وأنه لم يتعود على النظام والترتيب ودائمًا ما كانت تنظف وراءه منذ صغره، ولكنها لم تلحظ أي من سجائر الحشيش التي قد سهر عليها، فلقد كان حريصًا على التخلص من أي شيء يتعلق بها. دخلت حجرته ونادته بصوتها الغاضب العالي....

– أنت لسة نايم لحد دلوقتي، إيه الشقة الهباب ديه!!

كل ما فعله هو الانقلاب على جنبه الآخر وكأنه قد سمعها لكن غيبوبته قد فازت في النهاية عليه وعاد ليكمل نومه.

– يا بني قوم بقى، أنت مش حاسس بالدنيا حواليك!

– دنية إيه يا ماما في إيه على الصبح؟!

– فيه إن مريم أحمد عبد التواب اتقتلت، مش ديه تبقى خطيبة صاحبك؟؟!

وقعت تلك الأخبار عليه بالماء الذي دفعه أحدهم بشده عليه وهو نائم فقام وانتفض أو النار التي بدأت في حرق أطرافه وهو في نعاسه الشديد فقام مضطربًا يحاول إطفاءها.

بلع ريقه واستعاد أنفاسه وفتح عينيه بعد أن قام بسرعة ونظر

إليها...

– الكلام ده بجد! وصلك إزاي وحصل إمتى؟؟؟

– إمبارح بالليل، أنا فاكراك عارف.. ده حتى ياسين بيقولوا كان هناك واختفى لحد دلوقتي، ده الدنيا مقلوبة!!

جالت أفكار شتى في عقله بسرعة تكاد تكون أسرع من الضوء وتملك الرعب منه في لحظات.. أيعقل أن يكون قد حدث خطأ ما؟؟! هل قاموا بأذية مريم؟! والسؤال الأهم أين ياسين الآن؟؟!

قام من مكانه مسرعًا ووضع على جسده ما يعصمه من البرد الشديد، فلم يلحظ هذا الجو ولم يدرِ به.. فلم يكن على علم بما حوله في الساعات الأخيرة.. وارتدى حذاءه بسرعة البرق وأمه تنظر إليه في ذهول وتوجه إلى الباب فانفجرت فيه...

– رايح فين طيب، فهمني في إيه؟؟... مالك!!

لم يكن مكتب محمد رضوان إلا أحد المكاتب التي انشغلت في تلك الساعة بالحروب القائمة في الشوارع الآن، فلم تكن قضية الاغتيال بالأمس وحدها هي القضية الوحيدة في الميدان.. بل يوجد غيرها من المصائب والحوادث والتي سهر على حلها وتحليلها وعلاجها نخبة من الذين لهم حق في كلمة «رجال» وقد أثبتوا أنهم رجال وأنهم ولدوا يومًا من أجل هدف واحد وهو

تحقيق العدالة.

يسمع صوت الدق على باب مكتبه فينتبه إليه بعد انشغاله....

– ادخل!

وقف الأخير انتباه في شدة وحزم.

– تمام معاليك!

– إيه يا محمد في إيه!

– مسعد موجود برة يا باشا زي ما حضرتك أمرت.

– ٥ دقائق وخليه يدخل.

– تمام سعادتك.

ترك ما في يده وأمسك أحد الملفات والتي لصق عليها اسم مسعد حافظ، كان قد قرأه في سهرته بتمعن، لكنه أعاد التركيز على قراءة بعض النقاط. أعماله وتاريخه البسيط وحالته الاجتماعية وبعض العلاقات التي ستساعده بالتأكيد في حديثهما القادم.. في نفس هذا الوقت دق الباب ثلاث دقات، فأمر المستأذن بالدخول وقام هو من مجلسه ووقف....

– أهلًا أهلًا مسعد باشا، اتفضل...

– شكرًا يا فندم أهلا بحضرتك.

– تشرب إيه؟

– قهوة مظبوط.

رفع السماعة التي كانت على يمينه وأمر بإحضار كوبين من القهوة مضبوط وزيادة فورًا.

– –طبعًا أنا يؤسفني جدًا إللي حصل مؤخرًا وأحب أطمنك أنا منمتش من إمبارح وشغال على القضية.

– –ربنا يكون في عون حضرتك وأنا والله معرفش أنام.

عاد محمد رضوان بنظره إليه بعدما جلس أمامه وهو يسأله في جدية..

– قولي الخزنة كان فيها إيه بالضبط؟

– كان فيها أوراق لعقود بيع وشراء تمت تبع شغل ليا وطبعًا ٢٠٠ ألف جنيه!

– بس غريبة مبلغ كبير زي ده تسيبه في خزنة البيت، مش في البنك مثلًا؟!!

– ده كان تمن بيع عربيتي القديمة معداش عليه أسبوع وكنت بفكر أشتري واحدة جديدة كاش ولسة مكنتش قررت هعمل إيه بالظبط.

– معنى كلامك إن إللي سرقهم كان عارف كل ترتيباتك ديه؟

– ده أكيد، هيكون عرف إزاي إن في أقل من أسبوع كان فيه ٢٠٠ ألف في الخزنة وإشمعنى في التوقيت ده؟

– طب تعرف صاحب الصورة ديه؟؟

قال جملته تلك بعد أن أخرج الورقة التي وجدت على مكتب مسعد حافظ أمس وهي تحمل صورة كريم ومكتوب عليها عبارة ''هكذا تتحقق العدالة''...

– آه أعرفه!!!

هو الرد السريع الذي يأتي لخاطرك دائمًا ويخرج من فيك تلقائيًا دون قصد.. هي الحقيقة الكامنة بداخلك والتي تعرفها أنت جيدًا.. فكر مسعد مثبرًا.. هل كان عليه أن ينطق بصراحة شديدة بسرعته تلك!! لقد أثبت لرضوان باشا أنه على صلة كبيرة وتاريخ طويل بهذا المدعو كريم وأنه يعرفه جيدًا كمعرفته لولده أو أبيه!! هل أصبح محل شك الآن؟؟!!

قال جملته تلك بعد ذهول شديد واسترجاع للذاكرة وفي نفس تلك اللحظات، حضرت القهوة مقدمة أمامه، وانصرف جالبها بعد أن تم شكره من رضوان باشا...

– عايزك بقى تشرب قهوتك كدة وتحكيلي تفاصيل معرفتك بيه واحدة واحدة!!

لا أنسى:-

الوقت هو دواء الذكريات، أعتقد أنها الكذبة التي صدقها من قالها ولكنه كذب نفسه عندما رددها، عندما أحياها في قلبه مجددًا، وجد أنه ليس لها معنى ولم يخترع لها منطقًا.. الذاكرة والماضي وجهان لعملة واحدة.. إن اختفى أحدهم لحق به الآخر، سيبقى الماضي هو الماضي ولن يقدر أحد على تغيره وستبقى الذاكرة هي العضو الراقد بداخل عقولنا والذي استقر في موضعه واكتفى بمكانه ليذكرك بماضيك، هذا هو هدفه المحدود ومهمته التي كلفه الله بها، فلا إرادة لنا في تغيير الماضي، ولن يرغب أحد منا في تدمير الذاكرة ولو أنه يرغب الآن البعض، هل أنت ترغب في تدمير ذاكرتك؟!

ياسين يرغب.. يتمنى هذا في كل ثانية تمر عليه وكل ساعة تعصف به، يتذكر معها الأيام وتتبعها اللحظات الأخيرة الراهنة، يكاد يقطع نفسه إربًا، كلما صدق أن ما حدث في الساعات الأخيرة حقيقة وأنه لن يرى مريم ثانية.. يكاد يجن ويتمنى لو فقد الذاكرة، ولكنه لا يستطيع..

غالبًا ما يوجد هناك ما يبقيك.. تمسك به للنهاية..

يعدها بالسقوط والانهيار وهي تُحتضَر بين يديه، ولم تطلب منها الجنون أو تدفعه إلى الانتحار بل كل ما أرادته قبل أن

تغمض عينها إلى الأبد، هو أن يعود كما عهدته أول مرة وكما حلمت به للباقي من عمرها حتى وإن لم يكن في العمر بقية، لا ينسى أنه بالفعل تغير وقد مر الوقت عليه، وهو غريب عن نفسه، تائه بين ناسه ولكنه دائمًا ما يتذكر حالته الماضية..

تذكر اليوم الذي غارت عليه من سها، فبالرغم من ثقتها الثابتة وقلبها وعقلها اللذان يؤكدان لها إخلاص حبيبها، فأنها لم ترحمه يومها، نعم.. تذكر وابتسم فعاد بجسده وفرده للوراء.. ترك ما في يده وسحب أنفاسه للأعلى وهو يجلس في إحدى المقاهي الشعبية بوسط البلد وتذكر أحد أحاديثهما التي ما زال يحفظها عن ظهر قلب!!

– أيوة مش معنى إنكم متربين سوا وصحاب من زمان إني أفضل ساكتة يا ياسين!

– ساكتة على إيه يا مريم إنتي مكبرة الموضوع!

– لا مش مكبرة الموضوع، أنا لو فضلت ساكتة هيحصل أكتر من كدة!

– وهو إيه إللي حصل يا مريم، كلمتني عشان فيه مشكلة في الشغل روحتلها وحلناها!

– وبعدها خدتها وعدتها وطيبت خاطرها ومش بعيد مسحت دموعها!!!

قالتها بخنقة وغيرة لم تظهر عليها كثيرًا فقاطعها مداعبًا..

– لا مسمحلكيش، أنا اتغديت عشان كنت جعان!

– ياسين مبهزرش، أنا مش فاهمة هي ليه مكلمتش مالك أو حد من قرايبها؟؟

– وبعدين يا مريم ما إنتي عارفة إللي فيها مع مالك!

– متخنيش أكره سها يا ياسين! ومتتغيرش عن ياسين إللي أعرفه!

توقف عند تلك للحظات، كيف ينسى ما قالته هذا وهو يتردد في كل مكان بداخله هزة واحدة، لم ينس كيف رد عليها وقتها "طول ما إنتي معايا، أنا مش هتغير.. طول ما أنتي معايا عمرك ما هتكرهيني!"، هل هو وعد زمان وقد نقضه مؤخرًا!

الكره.. هو الشعور الذي أقسمنا على عدم الاقتراب منه.. هل وصلنا إليه في نهاية المطاف!!

قطع شريط الذكريات هذا وأخرجه من ماضيه صوت أحدهم...

– يا أستاذ تشرب إيه، يا أستاذ!!

انتبه إليه بعد سرحان، واعتدل في جلسته ثم نظر إلى ساعته فواجدها السابعة وقد أعم الليل الأرجاء...

– واحد شاي لو سمحت!

أخرج حاسوبه وقام بفتحه ووضع كلمة المرور الخاصة به ثم أوصل الهاتف الجديد الذي اشتراه مؤخرًا به، وبدأ العمل!

كانت مهمته هي محاولة اختراق ذلك الهاتف الذي حول حياته رمادًا داكنًا.. كل ما يحتاجه هو السيطرة على الرقم الذي كان يرسل إليه الرسائل المريضة تلك، وينتظر أن يوضع في أحد الهواتف التي يستطيع اختراقها أو يتصل بهواتف أخرى قريبة.. كل ما يحتاجه هو العمل ثم الانتظار! انتظار الخطأ الذي يوقع بالفريسة بين فكي الليث الجائع.. جوع الانتقام!!

****

التاسعة مساءً وقد وقف سنارة ينظر من بعيد كي يطمئن على «ملك» وهي تلعب في إحدى الملاهي الصغيرة، فقد كان اعتاد أخذها هي وصديقتها إلى النادي حتى يمرحوا ويلهوا، كان دومًا يريد لها أن تنمو بسلام وتكبر أمام ناظريه وهي تعيش حياة سليمة سالمة وها هي أمام عينه يلاحظها تكبر.. وبذلك تقترب لحظة إعلامها بالماضي الذي لا ينساه وتقترب لحظة الاعتدال عن طريقه والاستيقاظ من غفلته، ولكنه قد انتهى، وقرر أن يفيق وتاب عما كان فيه وسخر حياته لها.

قطع تلك النظرات الحيوية والأفكار الجدية صوت هاتفه فأخرجه؛ ليجد مكتوبًا "private number"..

منذ ساعة، قام بوضع الخط الذي أعطاه له كريم في هاتفه

الشخصي الحديث، هو نفسه الخط الذي أرسل لياسين الرسائل منه! لقد فعل ذلك، عندما طلبت منه ملك التصفح عبر الإنترنت على هاتفه، أقنعته وتحايلت عليه بخفتها وطريقتها التي تضعفه، فوضع لها هذا الخط الاتصالي الذي يوجد عليه رصيد كافي قد شحنه له كريم مسبقًا، لم يتوقع أن يصل أحد إليه، لا يعرف هذا الرقم غيره هو وكريم ولن يستخدمه مرة أخرى، تذكر أن كريم قد طلب منه أن يلقيه بعيدًا ويكسره وحذره قبلها من وضعه في هاتفه الشخصي، لقد نسى أن يلقيه، وعندما احتاج إليه استخدمه.. لقد أخطأ، هل الآن وقع كالفريسة؟!!!

استغرب في بداية الأمر ثم تساءل وفكر في عدم الرد، ولكن إصبعه قد أخذ القرار؛ ليضع السماعة على أذنيه بعدها...

- ألو! مين؟

- عسولة أوي الأمورة ملك، بكرة الساعة ١٠ الصبح تقابلني على العنوان إللي هبعتهولك وربنا يخليهالك ويا ريت محدش يأخد خبر، ربنا يخليهالك تاني!

- أنت مين؟! وعايز إيه!!... ألو! ألو!

لم يأته الرد وتأكد أن الخط قد انقطع، حاول تحديد صوت المتصل، ولكن لا جدوى! إن كان ياسين فكيف وصل إلى هذا الرقم وكيف عرف عنه كل هذا؟ وإن كان أحد أعماله السابقة، فمن وماذا يريد؟! جالت أفكار كثيرة في رأسه وبدأ الشك يدب

في عقله وقلبه.

– ملك تعالي بسرعة هنا!

– حاضر يا بابا في إيه؟

– يلا هنمشي دلوقتي بسرعة هاتي صحابك وتعالي!

– حاضر بس ليه؟!

– يلا!!! اسمعي الكلام.

إجباري:- الجمعة ١٨ فبراير

أصبحت الثامنة صباحًا وسنارة ما زال ينتظر وعقله هلك من كثرة التفكير وقلبه انشغل بالخوف هذه الليلة، وعينه لم يأتها النوم طوال الليل، كان يراقب ملك وهي نائمة حتى يطمئن عليها من حين إلى آخر، ويتطلع إلى هاتفه في باقي الأوقات، لعل الرسالة الموعودة تصله عما قريب، ولكن لم يصل شيء قط، أخذ يحدث نفسه كل تلك الفترة ويسأل عن من الذي اتصل به أمس وماذا يريد منه؟ لكنه لم يعثر على أية إجابة وإن ساورت عقله بعض الأفكار والإجابات لكن لا دليل يذكر، هل خانه كريم؟؟! هل هذا الشخص أحد معارف زمان؟؟ أيام الإجرام الشيطانية القديمة كان لديه فيها بدل العدو الكثير! هل هو

ياسين ولكن كيف وصل هذا الوغد إليه وكيف عرف ابنته! فهو لم يرسل له من هذا الهاتف من قبل! بل من خط آخر وهاتف قديم آخر، فكيف استطاع الوصول إليه؟!

تأكد أنه لن يصل إلى إجابة ترضيه كما أن باله لن يهدأ وقلبه لن يسكن قبل أن يعرف من المتصل وماذا يريد؟؟

في تلك اللحظات العصبية والأوقات المملة القلقة، سمع رنات هاتفه، فأسرع في رعب شديد وأمسك به وإذا به يقرأ "pri-vate number"، لم يتردد وضغط على زر الرد...

- ألو!

- الوقت اتغير، الساعة ٦، المكان هيكون ١٢ ج، أراضي حمدان، طريق مصر إسماعيلية الزراعي هتروح هناك، على البوابة في شخص مستنيك هيدخلك ويسيبك، أي حركة مش لطيفة، بنتك هتعرف بلاوي كتير عنك وممكن تهرب ومتشوفهاش تاني، سلملي عليها أنا عارف إنها نايمة دلوقتي كله ظاهر قدامي، سلام.

- استنى هنا، أنت مين وعرفت كل ده إزاي؟؟ هو أنا أعرفك؟؟

ذهب الصوت فجأة فتأكد أن الاتصال انقطع ولكن الدم في عروقه قد فار ولم يستطع السيطرة على نفسه...

- ألو! أنت عايز مني إيه؟ مال ملك بأي حاجة بيني وبينك؟؟! ألو!!

رمى بالهاتف بعيدًا وهو في ثورة غير مسبقة، أفاق منها على صورة ملك تنظر إليه في ذهول شديد، وهي خائفة فلم تعده مثل هذا من قبل!!

– بابا في إيه؟ أنا سمعتك بتزعق وبتقولوا ملك؟ هو في إيه؟؟

نظراتها وهي ترتعش وخوف عينيها الملحوظ جعله يهدأ ويستعيد قواه وتركيزه في الوقت الذي فقد فيه السيطرة على مشاعره والتحكم في كل جوارحه، فما منه إلا أن اقترب منها وضمها وطمأنها...

– متخفيش يا حبيتي أنا هنا جمبك، متقلقيش!

****

كان يمسك صورة قديمة.. صورة احتفظ بها منذ ٢٠ سنة.. كانت والدته هي من أهدته تلك الهدية الثمينة التي شغر بغلو ثمنها مؤخرًا.. وكلما مرت الأيام عليه، شعر بهذا الثمن أكثر فأكثر وتحسر على الماضي وعلى ضياع الأيام!!

دخلت سارة عليه فوجدته يبكي كالطفل المفقود.. يجري بدموعه بين الزحام يبحث عن أمه.. جلست بجانبه ومدت ذراعيها بحنو نحوه ونظرت إلى ما يمسكه.. صورة قديمة تجمعه مع أمه وأبيه.. كان طفلًا لم يتجاوز السنة.. لكنه الماضي!! لا يعرف السن.. كما هي الذكرى لا تعرف القدر!!

ضمدته إليها، فأطفأت قليلًا ما بداخله ولكنه لا ينطفئ تمامًا.. تعلم أنه تغير كثيرًا.. لكن لا تدري السبب! هل تذكر أباه وأمه الآن!!

– كريم.. اهدى.. حبيبي أنا جمبك!

****

يجلس محمد رضوان في مكتبه، وقد بدا أنه منشغل في اتصال أو ينتظر الرد من أحد، يعيد كتابة الرقم ثانية ثم يطلبه ويضع هاتفه على أذنيه وينتظر ولكن كما هو الحال، يكرر الاتصال مرة ثم الأخرى حتى يدخل عليه أمينه الخاص!

– باشا تقرير الطب الشرعي طلع، والمعمل الجنائي!!

– بالسرعة ديه يا مصطفى؟!!

– زي ما حضرتك أمرت يا فندم هما سرعوا شغلهم وخلصوا، اتفضل معاليك!!

أخرج التقرير وبدأ في القراءة السريعة المختصرة ثم نظر إلى الأمين.

– خليهم يجهزوا العربية يا مصطفى، دلوقتي الساعة ٩، أنا هتحرك في خلال نص ساعة!

– أمر معاليك!

قال كلماته وانصرف، أما الأخير، فقام بتغيير الرقم الذي يتصل به وانتظر الرد!

– ألو! محمد باشا.

– دكتور أحمد، آسف على الاتصال الصبح بدري كدة، بس كنت عايز أقول لحضرتك إنك تقدر تستلم مريم دلوقتي وتدفنوها خلاص.

– شكرًا جدًا معاليك وإن شاء الله أرد لك الجميل.

– أنا معملتش حاجة غير الواجب وإن شاء الله نصلي عليها بعد صلاة الجمعة!

– إن شاء الله في جامع الأزهر.

– تمام البقاء لله، شد حيلك.

– ونعمة بالله.

أغلق الاتصال وسرح بخياله قليلًا لكن لم تمضِ ثوان إلا وقد عاود الاتصال بمن حاول الوصول إليه مرارًا وتكرارًا في الساعات الماضية، انتظر قليلًا وهذه المرة أتى الرد!

– أنت فين كل ده ومبتردش ليه؟؟!

وداعًا:

أراك تمشي بعيدًا وأنا لا ألحق بك. لا أصل إليك وإن وصلت فعالمي غير عالمك وسأبقى بعيدًا كل البعد عنك!

هل ودعت من قبل؟! هل صادفتك لحظة ال «لا عودة»؟! كيف عشتها؟! ارجع معي زمنًا ليس ببعيد..

أتتذكر الدموع على خديك يومها؟؟ أكانت غزيرة كالسيل، أما حبست نفسها؟! هل تكلمت أم أجبرك الصمت على الخضوع له وانحنيت؟ كيف مرت الأيام بعدها؟ هل عشت؟! هل تنفست أم أنك فقدت تلك المعاني وأصبحت غريبًا عن كل من هم حولك؟؟!

هذا ما جال بخاطر ياسين، وهو يمشي وحده كما كان وحده منذ فترة طويلة.. يمشي حوله البعض ويتكلم البعض، يقف البعض وينادي البعض، هو لا يشعر بأي منهم، هو لا يشعر بنفسه، فقط عقله يتحرك وقدماه تمشي، أما روحه فقد وقفت عن العمل، بقت في جسده حتى يأذن الله لها بالخروج، ولكنها ساكنة صامتة لا تحس ولا ترغب، وإن سألوها ماذا تريد؟ لأجابت البكاء، إنه الألم غير الملموس، المكتوم، إنه القدر.. وهو يعرف أنه القدر ولا هروب من القدر!! كل ما فعله وهو يمشي غير مكترث بما حوله أن يتذمر، ليس لديه غير الذكرى،

الذكرى فقط...

وصل إلى أسوار الجامع الأزهر، ذلك المكان الفسيح القدير، وهو المزدحم في يوم الجمعة، وقت الصلاة وقبلها بقليل وبعدها بقليل، اقترب أكثر من البوابة، لكنه لزم الحذر، غطى وجهه ورأسه حتى لا يرى.

خفقان القلب اشتد كالمعتاد، والأنفاس بدأت رحلة التسارع، لكنه أصبح ذا خبرة وقدرة على الصمود والصبر! وما أشق الصبر؟!

الصبر.. هو الدواء المؤقت أو المستمر أحيانًا أو الدائم أحيانًا أخرى!!

ارتفعت أصوات المآذن في تلك اللحظة أن "الله أكبر، الله أكبر، وأن حي على الصلاة، حي على الفلاح".

ثبت مكانه وترقب، مرت دقائق معدودة، وإذا ببعض السيارات تتقدمها سيارة تكريم إنسان، ينزل عدد من الرجال ويقومون بإخراج التابوت منها ويرفعوه على أكتافهم، إنها هي، هي هناك! داخل ذلك الصندوق، ترقد بسلام في عالم مختلف، الوجوه عابسة والدموع تتساقط على عدد منهم أما هو فقد صمد، لكن إلى متى؟؟!!

دخل ياسين معهم ولكنه تخفى بين الأسوار وخلف الأبواب،

انتظر وهو ينظر إلى هذا الصندوق بألم شديد حتى أعلن الخاطب عن إقامة الصلاة، فقام وصلى مع المصلين فرضهم وتقدم المتوَفاة وبدأت صلاة الجنازة، فصلى وأطال الدعاء، في تلك اللحظة تذكر يومًا حدثته...

– عارف يا ياسين إيه أكتر دعاء بحب أدعيه؟؟!

– إيه يا ستي!!

– توفني اللهم مسلمالك والحقني اللهم بالصالحين!

''اللهم ألحقها بالصالحين''، كانت تلك آخر كلماته ثم سلم بعدها وتسلل مسرعًا بعد أن سيطر على كل جوارحه ثم انصرف.

سار خلف العربات وأحيانًا أسرع في خطوته حتى يلحق بها، وصلوا إلى المدفن، حملوها خارج العربة وقد كان العامل بالمقابر قد فتح الحفرة الأرضية المظلمة.. أخرجها من التابوت عدد من الرجال حملوها وهو يراقب من بعيد وعقله يكاد ينفجر ولا يصدق كيف؟؟! أن لن يراها بعد الآن، تمنى في تلك اللحظة أن يركض نحوها ويضمها بشدة، لطالما تمنى ضمها وتمنى أن تصل تلك اللحظة وكادت أن تصل ولكن وداعًا.. بدأ الرجال يحملونها بالنزول وهو يراقب وينهار ببطء، لم يتمالك نفسه بعد الآن فسقطت دموعه كالقطرات تحرق كل ما تبقى منه وبدأت تغيب عن ناظريه فبدأ يحرك شفاه ببطء إلا أن تجمعت

الحروف وانطلقت نحوها في صوت مهموس... ”سلام! سلام! سلام!...“

لا خيار:

نعيش أوقاتنا نختار، نفضل ونقيم ثم نستقر على قرار حاسم يكون الرجوع فيه متاحًا أحيانًا ومرفوضًا رفضًا تامًا في أحيان أخرى، لكن تكون لنا دائمًا حرية الاختيار، ونتمتع بها، هل تخيلت معي أوقاتًا تأتيك فتعجز عن الاختيار؟! أحيانًا تكون الإجابة نعم... كان لياسين الأمر مسبقًا في التصرف مع سها ثم كان له الاختيار عند وصول الرسائل إليه، كان لديه خيارات متعددة، يعتقد هو أنه إذا عاد بالزمن لغير الاختيار، وحقًا لو عاد لفعل.. لكن تراه يسعد بهذا التغيير؟! أتنقلب حياته رأسًا على عقب إن عاد وأقام الإصلاحات وعدل المسارات؟! الإجابة صعبة وتختلف باختلاف الزمن والشخص والقدر، ما زال هو القدر.

ماذا عن سنارة؟! ماذا عن ماضيه المخزي وابنته المسكينة التي اعتبرها من صلبه من اليوم الذي أخذها وضمها بذراعيه؟! كان له الاختيار في السابق، وقد اختار، أما الآن، فلا طريق لديك إلا قدرك وأصبح قدرك فرضًا عليك ليس اختيارًا وما عليك غير السمع والطاعة وإياك غيرهما!

بدأ مسرعًا في خطواته يسبق الزمن في شوارع منطقته حتى يصل إلى أقرب محطة... العربة التي تحمل الركاب أو ''الميكروباص'' ستكون هي خياره للطريق الزراعي أو إلى أقرب محطة رئيسة ثم يغير العربة هناك. كان يمشي بعد أن اطمأن مؤقتًا على ''ملك'' في شقته حيث أرسل إلى ''مؤمن'' صديقه وشقيق طفولته، أخبره أن الأمر خطير، وأنه يحتاج إلى مساعدته فطمأنه الأخير وأقنع زوجته بالذهاب إلى منزل سنارة للزيارة وبقى هناك يؤمن ملك ويرعاها حتى يعود أبوها، ركب إحدى العربات والتي نادت برمسيس وبعدها أخرج هاتفه واطمأن على حبيبته في مكالمة سريعة، كان هذا كله في الثالثة عصرًا، وعندما ارتاح قلبه قليلًا، أغمض عينيه وأسند رأسه على زجاج العربة التي انطلقت في الحال وأعاد التفكير.. كم هو مؤلم؟!!

****

أما في ''منزل الأستاذ كريم محمد الشرقاوي''، الشاب الوسيم طيب الطباع في نظر الناس، الشرير في أفلامه الخاصة، كان المشهد يأخذنا إلى شقته الواسعة الجميلة الراقية في إحدى الأحياء الجديدة، يرن أحدهم جرس الباب وينتظر، أما كريم تعجب واستفسر من زوجته إن كان هناك أحد ينتظره في هذا الوقت، ولكنها أنكرت! يذهب متأنيًا إلى الباب، وقد عدل من هيئته وفتح الباب...

– مش ديه شقة الأستاذ كريم محمد بردو؟

– أيوة حضرتك اؤمر!

– أنا المقدم محمد رضوان من مباحث القاهرة.

وقف كريم برهة وتناقلت الأفكار إلى رأسه لوهلة.

– أهلًا وسهلًا يا افندم اتفضل.

ردك السريع وإدراكك للأمور الأسرع هو سلاحك الوحيد الآن..

شكره رضوان باشا ودخل إلى شقته التي يقال عنها رائعة وكفى، تشبه المتاحف في زخرفتها ونقشها والزينة التي تملأ أركانها، جلس ثم نظر في عينه قليلًا.

– -حضرتك تشرب إيه يا فندم؟

– قهوة زيادة يا ريت، بالمناسبة بيتك حلو جدًا ومبروك على الجواز ولو إنها متأخرة بس المعرفة بنا جديدة.

استغرب كريم من كلامه، فهو لم يعرفه من قبل، لكن ذكاءه وصبره الطويل في مجاذب الحديث جعلته أكثر ثباتًا، الأمر الذي أعجب محمد رضوان ولم يكن يتوقعه.

– شكرًا جدًا يا افندم، ربنا يخلي حضرتك، بس لو مفهاش أي سوء فهم تسمحلي أستفسر عن الزيارة المفاجئة؟

– كل خير إن شاء الله، قولي يا كريم أخبار شغلك إيه؟

– تمام يا افندم الحمد لله، حضرتك زي ما أنت عارف مدير مجموعة شركات الرابح...

قطع حديثه محمد رضوان فجأة!

– أيوة مش ديه إللي بيمولها رجل الأعمال سامح هشام، عضو مجلس الشعب... الراجل إللي مربيك.

– تمام يا افندم معلوماتك مظبوطة!

قالها وابتسامة صغيرة ترتسم عليه وكأنه يخفي أمرًا ما

– أنا كل معلوماتي مظبوطة يا كريم، تعرف إيه عن مسعد حافظ يا كريم؟

قال عبارته الأخيرة وهو يتفرس الشقة وينظر إلى جهاتها متصنعًا الإعجاب...

– مش فاكر الاسم والله يا افندم! أو يمكن معرفوش أصلًا.

– يا راجل!!! أرض أكتوبر إللي اشترتها منه عشان الفرع الإداري إللي بدأت تبنيه!

– اه يا فندم أنا افتكرت، أنا اشتريت فعلًا من الشخص إللي بالاسم ده الأرض وحتى العقد معايا، أوريه لحضرتك؟

– لا لا ملوش لزوم، بس متأكد إن هو ده إللي تعرفه عنه بس؟ يعني ملكش بيه معرفة زمان؟!!

تغير وجه كريم، ولكنه تمالك نفسه واستعاد أنفاسه بعد أن ذهبت...

– والله يا باشا، كل إللي أعرفه عن الاسم ده، هو موضوع الأرض، غير كدة لأ!! لكن غير كدة مش فاكر والله!!

– لا ساعات بنفتكر يا كريم خصوصًا لو مش عايزين ننسى.. أو عايزين ننتقم مثلًا؟!

– أنتقم من إيه بس يا افندم، أنا كنت عيل صغير!! صدقني هي ديه كل معرفتي بالشخص ده، الأرض وبس.

– هنشوف يا كيمو هنشوف!

– ربنا يوفقكوا يا افندم ويعينكوا على شغلوا.

– آمين، هدفنا والله بنحاول نحقق العدالة يا كريم، أستأذن أنا وهنتقابل تاني.

أوصله كريم إلى الباب وشكره الأخير على حسن الضيافة وانصرف، رجع كريم إلى سارة التي حاولت الاستفسار منه عن الزائر، لكنه أظهر غضبًا شديدًا لم يسبق وأن رأته هكذا من قبل.. لكنها تعودت على تغير مستمر وغريب هذه الأيام.. لم

يخطر بباله وهو يمشي غير جملة واحدة، " بنحاول نحقق العدالة يا كريم"!!!

تغيير مسار:

لم يهدأ كريم ولو لثانية منذ أن تركه هذا الضابط المخيف، فبالرغم من تماسكه الشديد وقوته الملحوظة في الحفاظ على أعصابه، فأن التوتر هذه المرة قد تخطى كل الحدود، ولما لا؟! وقد تذكر أن الورقة التي هددته مسبقًا وجن جنونه بسببها هي ذاتها التي من الممكن أن تكون قد وقعت في يد محمد رضوان! يسأل نفسه ويحاول إقناعها أنه من العادي أن يقول ضابط من ضباط المباحث إنه يسعى لتحقيق العدالة! لكن طريقته ولهجة حديثه التي أتبعهتا نظراته، كانت بمنزلة الإنذار وأي إنذار؟؟! هكذا دائمًا تكون حالة المخطئ عزيزي، يشك في نفسه، وإن وجد ما هو أكثر من النفس محل شك لشك فيه!

لم يجد أمامه سوى سنارة، لعله يجد منه ما يفيده ويرضيه لكنه حاول جاهدًا الاتصال به ولكن الوقت حرج جدًا! لم يرض بهذا فغير ملابسه ووجهه قد نال قدرًا كافيًا من الغضب، أخذ مفاتيحه ولم يهتم حتى بالمسكينة زوجته التي تحاول فهم الأمور وربطها، لكن لا فائدة، كل هذا يحدث وهي تلاحظ في اندهاش غير مسبوق، تحاول أن تستعلم منه عن سبب حالته وخروجه

المفاجئ فقد وعدها بإجازة هذا اليوم والبقاء معها، حاولت مرة أخرى فدفعها هذه المرة بيده بعيدًا عنه، وقفت تحدق في عينيه فما وجدت منه إلا أن رفع يديه بالاعتذار وانصرف دون أن ينطق بكلمة، أما هي فجلست تبكي وتعيد سؤالها مرارًا وتكرارًا ''ماذا يحدث؟''

****

وقفت ساعة سنارة للحظات هادئة، لم يحركها إلا يد أحدهم وهي تخبط كتفه برفق.

– يا أستاذ، يا أستاذ!!

قام في قليل من الفزع، فلم يذهب عنه القلق كليًا.

– أيوة، في إيه؟؟

– مش كنت بردو عايز ١٢ج، إحنا قربنا نوصل فقولت أصحيك!

– شكرًا، هي الساعة كام؟

– داخلة على ٥ونص، شكلك كان تعبان أوي كأنك منمتش من أيام!

– اه فعلًا، الحمد لله.

****

كل في صدماته، ومع ذلك فالكل في طريقه يسير، الكل مهزوز وبالرغم من ذلك لم، يغير مساره أو يعدل عن الطريق، الماشي يقف أحيانًا، المترجل يمشي فترة، والسليم حتمًا سيحتاج لعكاز!

أترى مالك يحتاج لعكاز كما يحتاج له ياسين؟ لقد فقد سها منذ فترة طويلة، ولم يستطع العيش على ذكراها، لم تغب عن ذاكرته لحظة حتى في لحظات سكره وتدخينه وضعفه، وإن تكلمنا عن ضعفه، فهو لم يعد قويًا قط.

ها هو مالك.. يتمشى مستسلمًا لوحده بجواره ''الكورنيش''، برودة الهواء الذي يصفع وجهه، وصوت مياه النيل الذي يحرك خيوط قلبه، يجعله يتذكر ولا ينسى لحظة، قلّب الماضي من الأيام في رأسه لدقيقة من الزمن وعاد ليوم اعترافه وانكساره في نفس تلك اللحظة، كانت الأمور هادئة والعلاقة التي تربط بينهم تسير على نحو لطيف، لم يشعر منها إلا بكل احترام وتقدير ولكنها مع ذلك لم تعطِ أي انطباع عن حب لطالما تمناه، أما هو فكانت تلميحاته وأفعاله فاضحة كل ما يجول ويصول في قلبه ويتردد في أنفاسه، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه بفضح المزيد، لم ينس قط كلماته ذلك اليوم ولم ينس ردها..

– إيه يا بني جايبني على ملى وشي ولازم ننزل نتكلم، في إيه يا عم؟!

– ماشي يا سها، أنا عارف إني أزعجتك بس كان لازم أتكلم!

– يا سيدي بهزر معاك، تعبك راحة يا عم، احكي بقى أنا منزلتش في الحر عشان نقول لبعض معلش؟!

– سها أنا بحبك!

كم كانت ثقيلة على لسانه يومها بالرغم من سهولتها ومرونتها قبل ذلك، في القبل كانت تقال لنفسه أو لصديقه، تخرج من دون حسابات أو توقعات تنطلق بل رجوع، لكن في هذه المرة، تحمل كل أشكال الرعب والقلق، عجزت عن الكلام فترة، ولم تستطع النظر في وجهه، ولكن لم تمر ثوان حتى جمعت شملها ورتبت أفكارها، فكأنها قد تهيأت لتلك اللحظة منذ فترة وكأنها كانت تعرف وتعلم بحدوثها قبل الأوان.

– بص يا مالك، ربنا يعلم أنا بعزك قد إيه! وربنا يعلم بردوا أنا بحب علاقتنا إحنا الأربعة إزاي ومبسوطة إننا إخوات وتجمعنا عشرة ومحبة لكن...

– لكن بتحبي ياسين! بتحبي واحد عمره ما بصلك ولا اعتبرك غير أخته إللي دايما بيقف جمبها وتقف جمبه، بتحبيه وهو خطوبته كمان كام يوم على صحبتك!!

لم تجد الرد المناسب وقتها، ولم يدرِ هو كيف خرج كل هذا من على لسانه دفعة واحدة، أتراه يغير من صديق ياسين الآن؟ ولماذا لا!؟ والأمر يتعلق بحب عمره، بل لقد كان يغار منه منذ زمن، ولكنه كتم كل هذا فانطلق لحظة انفجار غير متوقعة!!

كانت كلماته قاسية، ولكنها للأسف تخبر بالحقيقة، وجد في تلك اللحظة أنه من المناسب الانصراف، أما هي فدموعها بدأت بالسقوط رغم محاولتها بأن تداريها حتى يغيب عنها ويبتعد ثم تحولت إلى بكاء يأبى التوقف!

لم تغب هذه اللحظة عن خاطره منذ حدوثها، منظره وهو يتركها وحدها وكلامه الذي قتلها كان يطارده في اليوم مرات ومرات حتى ماتت، حاول مرارًا مصالحتها، وقد سامحته وقتها وقررا ألا يخبرا ياسين بالأمر، ولكن هو لم يسامح نفسه وعندما رحلت قرر ألا يعيش ورفض الحياة.

****

في خطوات مسرعة بعض الشيء، يسير سنارة حتى وجد لافتة كبيرة أمامه ويكتب عليها بالخط العريض ''أراضي ملك الحاج حمدان''، توجه نحو البوابة الصغيرة، وعندما وصل نادى على أهل المكان فخرج له رجلان، بدا على الأول أنه حارس المنطقة أما الثاني، فرجل في سن الأربعين يلبس بنطال وقميص ولم يتفوه بكلمة.

– أيوة اتفضل، عايز مين؟؟

سأل الحارس وانتظر الرد، أما الرجل الآخر فأخذ ينظر لسنارة وكأنه يبحث عن شيء ما.

– أنا اسمي محمود، شهرتي سنارة...

لم يكمل جملته حتى تكلم الرجل بعد سكوت وانتظار.

– تمام تعالى معايا.

– استنى هنا ومتتحركش.

كانت هذه آخر كلمات الرجل الذي أوصله ثم انصرف، أما سنارة فبدأ الخوف يتملكه وهو لم يحمل سلاحًا ولا أي أداة للدفاع عن نفسه بل أتى كما طلب منه المتصل، انتظر بضع دقائق ثم نظر لساعته فوجدها السادسة والنصف، بدأ يمشي محاولًا البحث عن شيء أو فهم شيء ولكن ضربة قوية نزلت على رأسه بإحدى المطارق الحديدية، جعلته يغيب عن الوعي، لم يشعر بعدها بشيء.

بدأ يفتح عينيه بصعوبة، يحاول هو فتحها وتقوم هي بغلق نفسها فيعاندها مجددًا، استطاع في النهاية أن يفتحها كاملة ولكن الصورة أمامه غير واضحة، فقد كانت الضربة موجعة بعض الشيء، انتظر ثواني ثم دقق النظر، فوجد شابًا صغير السن يجلس أمامه ويحدق به في امتعاض وغضب كأنه ينتظره حتى يقف ثم يقتله، أما هو فقد كان مربوطًا من يديه وقدميه بحبل قوي والربط كان بإحكام شديد.. لم يستطع حتى تحريك أطرافه، كان مشدودًا إلى أحد العواميد ومتروكًا على الأرض كما هو.

– أنا فين وأنت مين؟

سأل هذا السؤال، ولكن لم ينطق الشاب الجالس أمامه، فحاول هو تذكر آخر ما حدث له، فتذكر الضربة على رأسه وأنه نام قليلًا دون شعور.

– الساعة كام؟ ما ترد أنت مين؟

حرك الشاب نفسه نحوه وكشف عن باقي وجهه، ونظر بقوة إلى عينيه فعلم سنارة ما في الأمر، ولكن قبل أن ينطق بكلمة سبقه ياسين.

– ليه؟!

– ليه إيه؟ أنت عايز إيه؟!

– ليه تموت كدة؟ وتقع قدام عيني كدة؟ إيه ذنبها؟

– أنا معرفش حاجة عن خطيبتك ولا أنا إللي موتها! أنا كنت ببعتلك الرسايل من رقمي التاني من تليفون تاني ومعرفش وصلتني إزاي، أنا كنت عبد المأمور لكن مقتلتش حد والله ما قتلت!

– كلكوا اشتركتوا وكلكوا هتدفعوا التمن!

تظل تتمسك بكامل قواك وتحبس الأسى بداخلك لكنك قد تنفجر لحظة..

نظر إليه سنارة وبدأ يتساءل راجيًا..

– طب قولي عايز إيه؟! ممكن أوصلك للي عمل كدة، بس ملك ملهاش ذنب!

– طب ما مريم ملهاش ذنب، أنا كمان مليش ذنب، أنا كنت عايز أتجوز البنت إللي بحبها! على العموم أنت كدة كدة هتقولي مين إللي وراك يا إما كل رسايلك ومكالماتك واتفاقاتك وصور الأماكن إللي سرقتها هتكون عند البنت المسكينة إللي متعرفش إن أبوها حرامي ومجرم، وكمان هتعرف إنه مش أبوها وإنها يتيمة يا عيني!

– عايز تعرف مين إللي عمل فيك كدة ووصلك لكل ده! اسأل نفسك؟!

قالها سنارة متحديًا يسخر من ذكائه ويشفق على عصبيته فرد عليه ياسين سريعًا..

– هو فيه غيركوا؟ دمرتولي حياتي وموتوا مريم!!

– اه فيه، إللي يعرف كل حاجة عنك وبيمثل إنه بيحبك ولا واخد بالك، فيه إللي باعك بالرخيص!

توقف ياسين عن الحديث لحظة وكأن شيئًا قد أصاب عقله فجأة، عاد بالماضي سريعًا وفكر في كل الأحداث جيدًا، نعم، كل ما يشك فيه الآن صحيح، لقد كان مغيبًا وتائهًا، لقد

خدع، تحركت شفتاه بصوت مكسور وتوسعت عيناه في صدمة تامة وهو ينظر لسنارة.....

– مالك!!!!

مرسال:-

لم يهدأ محمد رضوان منذ المرة الأخيرة التي تحدث فيها إلى كريم، ذلك الولد الغرور، عنده من المفاتيح الكثير ومن الأدلة القليل، فلا شك عند رضوان باشا، أنه يخفي شيئًا خطيرًا ولكن كل ما عليه هو الصبر والتركيز، وسيجد الخيوط أمامه وسيصل بإذن الله إلى نهايتها، ترك ما بيده لحظة واتصل على زوجته سوزان، المرأة التي صبرت ولم تيأس من روح الله، فلقد علمت جيدًا إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، لم يرزقها الله بالولد ولا البنت، فصبرت وراعت زوجها حق رعاية، وعقدا معًا العزم على الصبر والسير معًا في طريق واحد عسى أن يكون طريق الجنة، وأن يحيا ويموتا معًا، يعيشوا معًا جنبًا إلى جنب ومن يمت أولًا، يعش الآخر على ذاكراه، وينتظر اللقاء... اطمأن عليها وأغلق معها فلقد قصر في حقها كثيرًا الأيام الماضية.

عمله المتواصل هذا يجعله بعيدًا كل البعد عن عالم الناس بالرغم من كونه يرعى مصالح الناس ويحل مشكلاتهم! الآن يعود للتركيز على كريم، ولقد قربت الساعة من التاسعة، يمد

يده ليحتسي رشفة صغيرة من كوب القهوة الذي كان بجانبه ثم يدخل عليه الأمين مصطفى؛ ليقطع حبل أفكاره وشدة تركيزه بخبر جديد...

– محمد بيه، فيه رسالة وصلتنا يا باشا.

– رسالة!!؟ رسالة، وصلت لمين وإزاي؟؟!!

منذ ساعة تقريبًا وصل شخص مجهول كان يسير أمام مبنى المديرية.. في بداية الأمر كان مختفيًا وسط الناس، لم يلحظه أحد لكن بعدها واصل السير ثم رمى من بعيد ورقة عندما اقتربت لاحظها أحد الجنود وهو يقف في خدمته فالتقطها.. وجدها ظرفًا مكتوب عليه من الخلف.. مهم لمحمد رضوان.. نادى على الرجل الغامض هذا لكن لم يرد عليه وابتعد عنه.. حاول الاقتراب منه لكنه فجأة اختفى دون أن يترك أثرًا وراءه.. لم يرَ له وجهًا أو أي ملامح تساعد الضابط، فلقد كان مختفيًا بإتقان شديد..

– رماها وجري!! نعم! إزاي رماها وجري يعني وإنتوا كنتوا فين؟؟؟!

نظر الأمين في الأرض محرجًا من رئيسه بعد الخطأ المخزي الذي وقعوا فيه فأعقب رضوان كلامه مكملًا...

– هات يا باشا الجواب بسرعة!

سلمه الظرف في يده؛ ليجد مكتوبًا عليه ''مهم جدًا، محمد رضوان''، قام بفتحه مسرعًا وقد اشتد ما به من غضب.

''إذا أردت أن تتحقق من العدالة، فعليك بمحمود الزهري والشهير بسنارة، وإن أردت العثور عليه، فعليك بذلك العنوان...''

قرأ محمد رضوان العنوان جيدًا، فجأة رفع يديه ثم ضرب بقوة حافة المكتب في الوقت الذي بدأت علامات التساؤل على وجه الأمين...

– في إيه يا معالي الباشا.

نظر إليه بسرعة وأجمع تركيزه...

– هفهمك في الطريق، يلا بسرعة، هنتحرك دلوقتي!!!

****

وصل مالك إلى بيته أخيرًا بعد نزهة طويلة بمفرده، لم تكن تلك المرة الأولى التي ينفرد فيها بنفسه وينفرد به ماضيه. دخل من الباب وسار في الطرقات المؤدية إلى حجرته ولكن هذا قبل أن توقفه أمه وتوبخه كعادتها...

– يا بني كنت فين؟ قلقتني عليك!

توقف عن سيره ونفخ معبرًا عما به من امتعاض وكره لهذا الاستجواب.

– يا ماما كنت بتمشى شوية، أنا مش عيل صغير!

– روحت عزا مريم طيب؟؟

– لا يا ماما، مروحتش، ومعرفش ياسين فين!! بقالي يومين معرفش عنه حاجة، وأنا داخل أنام... وأنا كويس.

فتح الباب ودخل إلى غرفته ورمى بجسده على سريره، في تلك اللحظة جاءه اتصال، قرر للحظة ألا يرد ولا ينظر حتى فيعرف المتصل، لكنه تحمل كسله وحالته المتدهورة، وقام فأمسك بهاتفه وما إن وقع نظره ورأى اسم المتصل حتى تقلب حاله وتغير لونه وكأنه رأى شبحًا، استعد للمواجهة واستعاد أنفاسه ثم رد...

– ألو!

– –إزيك يا مالك؟!

– ياسين إزيك؟! أنت فين يا بني؟!

– مش مهم دلوقتي، محتاجك بكرة ضروري الساعة ٦ الصبح في شقتي إللي في أكتوبر الجديدة.

– معلش يا حبيبي البقاء لله، جت متأخر، بس أنت مختفي.

– ونعم بالله، متنساش بكرة بدري ومتتأخرش، حاول محدش يشوفك.

– حاضر يا ياسين، حاضر.

كان صوت ياسين عاديًا فيه بعض من الحزن وهذا طبيعي فقد خسر مريم وكانت بمنزلة الموطن له، هذا ما طمأن مالك به نفسه وبدأ يستعد لمقابلة الغد ويتساءل ''ترى فيما يريدني؟؟''

****

وقفت سيارة الشرطة تحمل عددًا من الجنود خارج العنوان المنشود وصوت السرينة المزعج لم يهدأ أو يقف قط، نزل محمد رضوان وجهز سلاحه وسار متأنيًا معطيًا الإشارات لمن خلفه، مرة بالتحرك ثم الأخرى بالوقوف، تحركوا معًا كتلة عسكرية منظمة يقودهم رضوان باشا، تأكدوا من الأمان حول العنبر ثم تقدموا نحوه وفتح الباب، فلم يرَ غير الظلام، أخرج كشافه فظهر أمامه القليل، تقدم هو والباقي خلفه يؤمن ظهره حتى وقع ضوء الكشاف على منظر مريب ومخيف حقًا، يرتمي سنارة على الأرض وقد غرق في دمائه التي تسيل دون توقف، لقد اخترقت رصاصة رأسه، فأنهت حياته في الحال! طلب محمد رضوان من رجاله الإسراع في تفتيش المكان ثم اقترب هو من تلك الجثة التي بدت مربوطة بإحكام، وقام بالتفحص فيها، لعله يخرج بما يفيده، لم يجد أي سلاح مما يؤكد عدم الانتحار، بحث مجددًا حتى أخرج ورقة من جيبه، وقرأ ما هو مكتوب عليها من الخلف، ''إلى ملك حبيبتي وابنتي، ثم إلى العدالة''

فرد الورقة جيدًا ثم بدأ بالقراءة...

”مرسال... إلى عزيزتي ملك، كنتِ دائمًا ابنتي، إن لم أعد إليكِ فاعلمي أني لم أحب أحدًا في مثل هذه الدنيا أكثر منكِ، كنتِ أنتِ ابنتي التي لطالما تمنيتها حتى وإن لم تكن من صلبي، أوصيكِ بتقوى الله، أذنبت كثيرًا وقصرت في حقكِ كثيرًا، أخطأت وأجرمت فأرجوكِ سامحيني، على يقين أن ربي سيسامحني، أليس من سماته الغفران؟! طريق النجاح أمامكِ فلا تضعفي بل أكمليه وسيري فيه، تذكريني بكل جميل واغفري لي ما خبأته الأيام عنكِ، واذكريني في صلاتكِ، سأظل أحبكِ في مماتي، فقد تبت وعهدت ربي أن أحافظ عليكِ، فاجعليني أفتخر بهذا العهد، لولا هذا العهد، لما أردت الحياة، صدقيني إنه الأمر الصائب الوحيد في حياتي.

مرسال.. إلى العدالة، ستجدوا أسماء وتفاصيل لعمليات كثيرة وقضايا كثيرة مستحدثة، أرجو الإسراع في تحقيق ما تطلبوه دومًا وأرجو أن أكون قد فعلت الصواب، أرجو أن تسرعوا.. وأتمنى أن تحفظوا ابنتي بعد رعاية الله أولًا، هي الأمانة بين أيديكم الآن.

محمود عيسى الزهري..“

قل لي صديقي، كيف أصبحت اليوم؟

أراك ضعيفًا، مهمومًا، تخفض الرأس وتحمل الراية البيضاء! تتذكر ولا عندك غير الذكرى، تتألم ولم يكن من عادتك الألم،

أراك منكسرًا، تحطمت عظامك وأنت من كل هذا لا تدري، لا تشعر ولا تحس! أين أنت؟! أراك تبحث عن نفسك في كل من تعرفه ومن لا تعرفه.. ترى الناس بعين دمرها السقم وأحاط بها السواد. أرى جسدك وكأنه تفتت من كثرة السهام وروحك قد تبدلت بمرور الأيام!

إذا قل لي كيف أصبحت اليوم؟

كان هذا آخر ما قد سأله لنفسه وراوده في جوفه وهو يقلب في الصور القديمة التي يحتفظ بها على هاتفه، مع كل صورة حكاية، ومع كل حكاية يتجدد بداخله الألم، تلك صورته هو ومالك في الثانوي، وهذه صورة أخرى في إحدى المصايف في السنة الأولى من الجامعة، أما هذه فصورة تجمع بهما في حفل تخرج ياسين، ليس هذا فقط، بل وصل بحثه إلى مقاطع مسجلة، ارتفعت فيها صيحات الضحك والمرح والآن ترتفع معها كل معاني الضيق والهم!

– فاضية أوي الشوارع دلوقتي يا افندم!

كان هذا صوت أحد سائقي سيارات الشركات الخاصة والتطبيقات المنتشرة "uber"، أما ياسين فكان خياله وكنانه يأخذانه لبعيد ولم يسمع الهمس حوله..

– أستاذ! أستاذ ياسين!!

التفت إليه وقد فتح عينيه جيدًا بعد أن أغلق نصفها بالنصف

الآخر ذكرياته الثائرة...

– أيوة معلش، غفلت شوية، كنت بتقول إيه؟

– لا ولا يهمك يا أستاذ ياسين، لو حضرتك حاسب تريح شوية ولما نوصل هصحيك؟!

– لا لا أنا بقيت تمام.

– تمام، هي فين الشقة في أكتوبر بالظبط؟!

– في الحي الثالث، مش بعيد عن الحصري، أول ما نبقى هناك هقولك نمشي إزاي متقلقش هي الساعة كام؟

– يعني داخلة على ٥:٣٠، نوصل بالسلامة إن شاء الله.

كانت الشمس قد أعلنت قدومها بعد إرسال القليل من أشعتها الصفراء الذهبية، هذا إلى جانب الضوء الأزرق الذي لمع معه منظر السماء الصافي، كانت الشوارع هادئة بعض الشيء فيعد يوم السبت هو أحد الأجازات للكثير من موظفي الدولة وعدد من المدارس.

كل هذا الجو هيأ ياسين لرحلة عودة مرة أخرى للماضي، ولكن ليس ببعيد، فأراح ظهره وألوح رقبته إلى الطريق.

– يعني طب فهمني، العمارة شكلها عامل إزاي؟ إحنا نجري صح؟! ياسين رد عليا!!!

كان هذا صوت مريم وهي تنظر إليه وتجلس بجانبه وقد

وجهت وعدلت من نفسها نحوه وهو يقود السيارة ومبتسم لحماسها وطريقتها الطفولية تلك.

– الصبر، الصبر كلها ربع ساعة وهوديكي هناك تشوفيها، ومتأكد إنها هتعجبك، ممكن تهدي شوية.

– لا مش ههدا يا ياسين لحد لما أروح وأدخل شقتي وأشوفها بنفسي.

– خلاص، كملي جنان يا ماما بس وطي صوتك عشان أركز في السواقة.

– يووه على برودك يا ياسين، نفسي سها تيجي تسكن معانا هنا، تخيل نبقى جنب بعض!!

لم يأتِ الرد من ياسين وكأنه فضل السكوت وحبس في قرارة نفسه شيئًا عميقًا.

– مالك سكت ليه؟! هي أخبارها إيه مع مالك صحيح؟!

– والله يا مريم هو ماشي يحلم بيها، بس هي الموضوع مش في دماغها يعني، كل واحد حر بقى.

– ربنا معاهم ويسعد كل واحد فيهم، ها هنوصل إمتى؟

– الصبر، قولنا الصبر...

يجلس مالك منتظرًا في شقة ياسين الجديدة ما يقرب النصف ساعة، أتى مبكرًا؛ لأنه لم يستطع النوم طوال الليل، استمر في

النظر إلى كل أرجاء الشقة التي لم يكتمل تشطيبها، لقد غادرها العمال منذ أسبوع تقريبًا، ولم تكن تعلم مريم، كل ما كانت تعلمه هو تغير ياسين وتغير تصرفاته فجأة، نظر إلى ساعته فوجدها السادسة إلا ربع وما إن رفع رأسه حتى وجد شخصًا ما يدخل من باب الشقة في صمت تام، توجه نحوه حتى رأى صاحبه فأسرع نحوه واحتضنه، أما الآخر، فلم يحرك زراعه حتى واكتفى بالصمت، لاحظ مالك ما بصاحبه من تغيير، فاعتقد أنه إثر ما حدث له في الليالي الأخيرة، فتوجه نحو النافذة القريبة وبدأ بالحديث...

– وحشني يا بني، البقاء لله يا حبيبي، أنت عامل إيه دلوقتي؟!! طمني.

قال كل هذا وقد أعطى لياسين ظهره وما إن التف حتى وجد صاحبه قد أخرج سلاحه ووضع فيه كاتم صوت ووجهه نحوه، فزعه هذا المنظر وطار عقله في الحال، لكنه لم يتحرك من مكانه..

– ياسين في إيه؟ إيه المسدس ده؟ وبتوجهه في وشي ليه؟! أنت بتهزر يا عم ولا إيه؟!

بدأ الاقتراب منه، فلعلها مزحة من ياسين، ولكن ما إن اقترب خطوتين فقط حتى صوب ياسين السلاح إلى قدمه وضغط على الزناد فانطلقت الرصاصة نحو مالك الذي وقع من شدة الألم والصراخ، أما ياسين فثبت مكانه وعينه مصوبة على عين مالك

التي أخذت اللون الأحمر، وقد انهار في البكاء.

– اقتلني يا ياسين اتفضل مفيش كلام يتقال.

نظر ياسين إليه وهو يعلم أنه لا يريد قتله ولا يريد أن ينظر إليه مرة أخرى، تذكر سها التي ماتت منذ فترة طويلة، تغير بعدها مالك حاله، أصبح يشفق ياسين عليه كما أشفق على نفسه كثيرًا منذ زمن، لم يدرِ ما الذي يقوله في تلك اللحظة لمالك، أحيانًا يجب عليك الصمت، لم يعرف مالك بأمر الرسائل التي أرسلتها سها لياسين قبل وفاتها بليلة، ليلة جحيم عاشها ياسين، استيقظ على خبر وفاة سها إثر حادث وهي تقود سيارتها، قضاء وقدر.. هو الآن يعيش الجحيم من جديد، لكنه راض به كل الرضا، لم يعد شيئًا يهم، أو لم يعد شيئًا فارق، كل ما يشعر به الآن هو رغبته في الإصلاح، رغبته في التغيير، في الاختيار..

عاد بنظره إلى مالك الذي بدأ في البكاء وتذكر طلبه بأن يقتله فابتسم له في هدوء مريب ليقول..

– لا لا، لا يا صاحبي مش هقتلك مش عشاني، أنا لو عليا مستعد آكلك حي، بس أنا وعدتها مش هوسخ إيدي وأنا لو لمستك بس إيدي هتتوسخ يا مالك!

– وعدتها، أيوة أيوة، يا بختك، أنا بقى معرفش أوعد سها بحاجة يا ياسين!

– وأنا ذنبي إيه؟! مريم؟! ذنبها إيه؟!

سأل سنارة عن ذنب مريم والآن يسأل مالك! كأنه يحمل عبئًا فوق ظهره، كأنه يسأل لمجرد السؤال، يعلم أنه لا إجابة ولا وجود للذنب! فقط هو يتألم..

رفع مالك نظره إليه بعد أن تأوه قليلًا وهو يمسك بساقيه المتألمة، ثم ينفجر فيه..

– ذنبك إنها كانت بتحبك يا أخي، بتحبك ورفضاني ولما احتاجت حد لجأت ليك ولما دمرت حياة حد كانت حياتك أنت، ليه مدمرتنيش أنا؟! ليه ياسين؟!

– يعني عشان سها حبتني وأنا مليش ذنب وعشان كانت بتلجألي وبردو مليش ذنب، تقوم تبعني؟! تدمرني؟! تعرفني وتعرف سري إللي أنا أمنتك عليه لكلب زي سنارة وإللي شغالين معاه؟! تدمر حياتي وتكون سبب في موت خطيبتي؟؟!

– كرهتك يا ياسين كرهتك ومكنتش بحس غير بنار جوايا نحيتك.

– أعمل حاجة أخيرة حلوة في عمرك وقولي مين إللي وراكوا، مين إللي قتل مريم؟! انطق..

نظر مالك إلى الأرض يخجل من صديقه الذي يقف أمامه في انتظاره أن يتكلم..

– معرفش مين قتل مريم؟! إللي أعرفه واحد اسمه كريم الشرقاوي، سنارة وقع بلسانه في مرة كان سكران معايا وأنا عرفت مين كريم وعرفت تفاصيله وصورته وبقيت بهدده بورقة قبل كل عملية بحطها في المكان إللي هيحصل فيه العملية عشان يخاف فميأذنيش ولا يأذيك!

– ياااه كتر خيرك..

قالها ياسين وهو يضحك بألم، اختلطت ضحكاته بالدموع.. مسح دموعه وأعاد السلاح إلى حقيبته...

– في أقل من عشر دقائق عربية إسعاف هتكون هنا وهتروح المستشفى، معرفش بقى هتكمل حياتك إزاي؟! ربنا معاك يا صاحبي!

توجه نحو الباب وفتحه ثم أغلقه خلفه وانصرف وخلفه مالك قد جن جنونه وماتت أعصابه..

– ياسين استنى، ياسين لأ،

– ياسين سامحني!!!!

هدنة: الثامنة صباحًا، السبت ١٩ فبراير

بالرغم من كل ما بذلته، ستشعر بالفشل وبالرغم من كل ما

قدمته لن تنعم بالرضا!

هذه العبارات هي بالظبط ما يعيشه رضوان باشا مؤخرًا، فقد أصبح واقعه يشعره بالعجز، فلم يستطع حتى تلك اللحظة أن يمسك بدليل قاطع على كريم المذنب في نظره ولكن ليس أمام القاضي.. ورقة وضعت عليه صورته في مسرح الجريمة ليس بالدليل الكافي على أنه قاتل أو سارق أو حتى مذنب وخصوصًا أنه لم ينكر معرفته بمسعد حافظ والأعمال التي كانت بينهم، أما سنارة، فكان هذا هو العجب كله، لقد أفضى بكامل أسراره إلى الشرطة أو بالأصح إلى العدالة وكفر عن ذنبه وأرسل الوصايا إلى ابنته، وفي النهاية مات منتحرًا أو مقتولًا والأرجح أنه قتل ولم يلحقه رضوان باشا بل وصل إليه، عندما كان دمه من حوله يسيل، وسار وراء ورقه قد رميت أمام مبناه، فبالتأكيد هناك من يلاعبه ويحركه كيفما شاء، أمن الممكن أن يكون ياسين؟؟! لقد اختفى منذ الحادثة ولم يعرف له طريقًا، أرسل المخبرين والجنود للبحث عنه في كل مكان، ولكن لا أثر له وكأن الأرض قد فتحت فيه الأبواب ابتلعته ثم أغلقت!! كل هذا زاد من شعوره بالألم ومن إحساسه الشديد بالفشل...

كان يجلس ويفكر في كل هذا ويديره في رأسه، وضع كفيه كاملين على رأسه الذين أخفيا ثورة وصداع شديد بسبب كل هذا التفكير وكل هذا العناء الطويل! أما وجهه فقد اكتفى بالغضب والزجر كالبدر في ليلة اكتماله بالضوء ولكنه كتم غضبه

وجزعه ولم يكن كالبدر، فقد أحجب نوره!

مر القليل من الوقت قبل أن يدخل عليه إحدى مستشاريه ومساعديه المعروفين الأمين مصطفى، في الوقت الذي أمسك بملف ياسين محمد هاشم المختفي الغامض، أيكون هو الذي يحقق العدالة؟؟ أم المتهم أمامها؟؟!

– إيه يا مصطفى؟ إيه الجديد؟؟

– يا باشا حضرتك محتاج تنام شوية! شكلك تعبان جدًا!

– أنا نمت ساعتين، وبعدين ما يمكن لما أنام أسمع خبر جثة جديدة لا عرفت ألحقها ولا استفدت منها!

– يا باشا متأنبش ضميرك! والله أنت بتعمل إللي عليك ومش مقصر في حاجة!

ما زالت القضية لم تنتهِ.. إذا سيؤنبه ضميره ولن يهنأ بالنوم أو الراحة.. هذا لا يهم.. ما يهم الآن المستجدات.. يعود لأمينه فيسأله من جديد..

– سيبك من الكلام ده وقولي إيه الجديد؟؟!

– بصراحة يا باشا فيه خبر ميفرحش! مالك إللي كان في القايمة بتاعت سنارة وصاحب ياسين! اتنقل لمستشفى أكتوبر بطلق ناري في رجله والإسعاف بتقول إنهم لما وصلوا كان فاقد الوعي!

– ودلوقتي؟؟؟؟

– في العمليات المفروض.

غضب محمد رضوان هذه المرة بشدة وتحرك من مكانه بسرعة..

– يجهزولي العربية حالًا، هنتحرك دلوقتي!

كان قد قام من مكانه وجهز نفسه للرحيل قبل أن يدخل عليه بدر، مجنده الخاص في حالة من السرعة والحماس..

– في إيه يا بدر؟

– تمام يا باشا كل تعليمات حضرتك اتنفزت وفيه أخبار لازم تسمعها.

– تمام تعالى معايا، وأنت يا مصطفى جهز إللي قلتلك عليه بسرعة!

كان بدر وهو أحد جنود محمد رضوان المجتهدين الجادين قد قام بعمله على أكمل وجه، وجاء ليخبر فائده بالتقارير، كانت الأخبار تنص على حدث متوقع لرضوان باشا، والذي قد أرسل رجله هناك؛ لينقل له ما حدث.

فقد عاد كريم إلى بيته في الثالثة فجرًا وحمل إلى الداخل حقيبتين كبيرتين لم يظهر لمحمد ما بهما فقد كانتا مغلقتين بإحكام، مرت ساعة حين أتت سيارة أخرى وطرق سائقها الباب فأعطى له

كريم الحقائب فأخذها ورحل. بحث رضوان وتفحص المسار الذي سارت فيه سيارة كريم جيدًا فعلم أنه كان هناك! إنه المكان الذي كتبه سنارة في اعترفاته، الآن الصورة بدأت أمامه تكتمل، بالطبع ذهب هناك وحمل كل ما يخص جرائمه وأعماله القذرة ثم أعطاها بشخص موثوق، فيخلص منها للأبد، كان هذا بمنزلة التأكيد منه على ما يمليه عليه قلبه، أصبح بذلك كريم هو خيطه الأول والأخير ولكن اسم آخر وحيد سيجيبه على كل تلك الأسئلة.... ''ياسين!!''

****

استيقظ كريم فوجدها العاشرة، لم ينم غير أربع ساعات فأحس بالقليل من الخمول بالإضافة إلى ألم الرأس المستمر، أما الخوف فقد ذهب قليلًا، فبدأ يعيد التفكير في زوجته وما حدث بينهم الليلة الماضية وكم كان قاسيًا معها وأغضبها ولكنها ليلة طويلة قد انتهت، كانت سارة قد خرجت مبكرًا لأداء بعض المشاوير ولم يلحظ هو خروجها فقد كانا منفصلين في تلك الليلة، أحس بالذنب الشديد فبالرغم من كل ما يحدث فأنها الشيء الوحيد ذو الحب والحياة بالنسبة له ولن يقدر على ذلك الخصام وبالتأكيد لن يتحمل الفراق، اتصل بها مرة ثم مرة أخرى فلم ترد، لا يدري إن كان عن قصد أم لا، فبدأ بمراسلتها....

''سارة، أنا آسف، بس والله مشاكل في الشغل، أول ما تيجي

هحكيلك كل حاجة ومش هزعلك تاني أبدًا والله، مستنيكي، بحبك"

تذكر عندما قابلها أول مرة كانت ابنة لأحد شركاء سامح هشام.. اعتقد الجميع أنه زواج تقليدي.. زواج مصلحة أو ما يسمونه بالصالونات.. لا ينكر أنه كانت هناك مصالح كبيرة وتوطيد للعلاقات بين سامح وشريكه باعتبار كرين ابنه المتَبنى ولكن.. أحبها كريم منذ أن رآها.. قرر أن يتقرب إليها وقرر أن يتقدم خطوة ثم الأخرى.. وقتها شعر أن الله قد أهداها أخيرًا بعد عناء الطفولة وأيام الأسى.. أيام اليتم والملجأ.. تم الزواج ولكن دائمًا ما تدور الدنيا وقد دارت..

كانت سارة منشغلة بعض الشيء، فلم تسمع هاتفها ولكن ارتسمت ابتسامتها أخيرًا بعد قراءتها ما أرسله روحها فبادلته هي الأخرى..

"لما تحكيلي هتعرف إنك غلطان لما تلاقيني جمبك ومعاك،، وأنا كمان"

وصلته رسالتها وهو يجلس وفي يده عصير قد أعده فابتسم وانشرح صدره قليلًا، أغلق عينيه وبدأ في تذكر لحظات مرت بينهما فأخرجه من تلك الذكريات صوت إشعارات الهاتف وإذا بها رسالة نصية من رقم غريب، ففتحها....

"مراتك قدامي وهتبقى في أمان، كمان ساعة هبعتلك نتقابل

فين، مع تحيات العدالة''

سقط الكوب من يده، فتحطم زجاجه على الأرض وقام مفزوعًا من مكانه ولا يدري ماذا يفعل؟

فتح سجل المكالمات واتصل بها في الحال ولكن لا رد!! تقلبت الأحداث في ذهنه في أقل من دقيقة وهو يحاول الوصول إليها، رفع صوته عاليًا وهو في انهيار تام!! ''يا سارة ردي بقى!''

كانت سارة على رصيف شارع رئيس، بينما ياسين يقف في انتظارها على الناحية الأخرى، بدأت في السير نحو الطرف الآخر فسمعت صوت الرنات داخل حقيبتها، مدت يدها لتلتقط الهاتف فتوغلت في أعماق الحقيبة التي امتلأت بالأشياء وأخيرًا أخرجته وردت ''أيوة يا حبيبي''، لم تكمل جملتها حتى نظرت على يمينها فوجدت شاحنة ضخمة تتجه نحوها، حاول السائق تغيير المسار ولكن اصتدم بها فسقطت غارقة في دمائها والكل من حولها يجري وينادي بالمساعدة، أما ياسين فقد وقف مذهولًا غير مصدق وتسمر في مكانه لحظة ثم أفاق من صدمته وانطق!!!

هناك كريم يحاول تدارك الأحداث، ينادي بصوت عال ''سارة، ردي! سارة'' ولكن لا جديد، فبدأ بالصراخ.. صراخ الذنب.. صراخ الأسى.. سقط على الأرض فاقدًا القدرة على الحركة وبصدمة عصبية قوية أغمى عليه وحيدًا لم يسمعه أحد!!

لا فارق:- الثلاثاء ٢٢ فبراير

مرت ثلاثة أيام كاملة ساءت فيها الأحوال ببطء شديد حتى عذبت الجميع، فزع ياسين من مشهد حادثة سارة، ذكره بوفاة سها لم يرها وهي تتنفس آخر الأنفاس، ولم يسمع صوتها في ذلك اليوم ولكنه أحس بكل ما حدث لها بعد رؤية سارة وهي تهوى أمام عينه بعد الاصطدام، لم يعرف ما يجب عليه فعله الآن فلقد فشلت خطته بعد تلك الواقعة، ولولا أن تدارك نفسه وانطلق فور الحادثة لكان للقدر رأي آخر، اختفى في هذه المدة القصيرة ولكنه عجز عن التفكير والبحث والتخطيط.

يقف رضوان باشا عاجزًا، ولكنه يعيد الحسابات وينظم الشكوك والأولويات ويرتب الأحداث ويسير وراء كل خيط إلى آخره، أصبح متيقنًا من اتهام كريم وصلته القوية بكل ما يحدث من جرائم، لم يكن على علم بما حدث لسارة إلا بعد ساعات، وعندما علم بالأمر لم يستبعد أن تكون هذه الكارثة مخطط لها وأنها ليست محل الصدفة، ولم يستبعد أيضًا أن تكون صدفة وقدرًا من الله وابتلاء لهذا المذنب كريم الذي لم ينكشف قط، أما كريم فقد انكسر وسقط ولم يعد قادرًا على الوقوف مرة أخرى، اعتزل الحياة ومن يومها وهو في بيته يتأمل صور زوجته وقلبه يمتلئ بالذنب الشديد والإثم العظيم، لم يفارقه إحساسه بالخذلان ولا لحظة منذ ما حدث فدمرت كل جوارحه وتوقفت

كل وظائفه فأعرض عن الطعام والشراب وأقبل على الخمر والتدخين وسالت عيناه بالدمع وبالرغم من معرفته بوجود زوجته في أحد المستشفيات ودخولها في غيبوبة تامة لم يقدر على زيارتها والذهاب لرؤيتها فلعلها تكون النظرة الأخيرة، ولكن "لا فارق.." لم يعد يشعر ولم يعد يحس!

كم هو عظيم الحساب وكم هي مؤلمة اللحظات الفارقة، ففي الثانية الواحدة تنقلب الدنيا وتتغير كل موازين الحياة!!

انتقل مالك إلى حجرة أخرى خارج العناية المركزة، ولكنه ظل نائمًا فما يستيقظ إلا وهمهم ببعض العبارات غير المفهومة والكلمات غير المنسقة ثم بكى وأكمل نومه ثانية، لم تستطع الشرطة استجوابه، فلم يفهم أحد غير كلمات قليلة تخرج من فمه "سامحني يا ياسين، سامحيني يا مريم، سامحيني يا سها".

كل هذا كان عذابه هينًا على مالك حتى وإن كانت أعصابه قد هلكت وحالته النفسية تدهورت، فإن الحلم الذي راوده في تلك الليلة كان بمنزلة العذاب الأكبر والانتقام في هذه الحياة..

رأى سها وهي تجلس في أحد الأماكن التي جلسوا فيها معًا ومعهما ياسين ومريم، كانت وحدها فذهب إليها وهو غير مصدق أنه رآها، جلس بجانبها فأحس بها وهي لا تشعر به، فبدأ يرفع صوته ويناديها... "سها، أنا مالك، سامعاني؟!"، لم يجد منها أي رد فعل أو جواب، فأحس بالضيق الشديد،

أتكون غاضبة منه؟؟ ولكنها لم تشعر حتى بوجوده، ولم تلحظه بجوارها، حاول لمسها فوجدها سرابًا وهواءً وقد أصبح جسدها كالريح فتذكر أنها ماتت وما يمتثل أمامه الآن إلا شبح جميل فأشبع روحه من النظر إليها للحظات ولكنه رأى ياسين ومريم قادمين نحوها وهما يضحكان ويتحدثان ثم رآها تنظر إليهما وتبادلهما الابتسام وبعدها وقفت وسلمت على ياسين وقبلت مريم واحتضنتها بشدة، قام على الفور بلمس ياسين فوجده هواءً وضوءً لا أكثر، الآن قد فهم وعرف الحقيقة، ليسوا هم السراب وليسوا الأشباح إنما هم الأشخاص وهو الشبح بينهم، هو الذي يسكن عالم غير عالمهم، هو البعيد كل البعد عنهم، ساروا معًا فسار خلفهم حاول لمسهم ونداءهم ثم لجأ إلى الصراخ في وجوههم ولكن ''لا فارق!!''

أفاق يصرخ من الخوف والفزع ولكن لم يسمعه أحد فقد كان صوته مخنوقًا بعض الشيء ودموعه منهمرة، فخلع ما كان يرتديه من ضمادات ونزع كل الأسلاك ووصلات الأجهزة وأخرج كل الإبر التي حقن بها وبدأ السير وهو يستند على الحائط بجانبه فوقع بعد خطوات بسيطة ثم أعاد المشي حتى وصل إلى أقرب نافذة، ففتحها وتسلق من خلالها.. وقف على حافتها ونظر للأسفل فوجد العالم الذي لم يعد يرغب فيه.. تذكر حياته كلها في ثوان ثم سقط دون تردد أو رجوع.. اختار مساره وأخذ قراره، تجمع الناس حوله ولكنه قد حكم على

نفسه ونفذ الحكم وانتهى كل شيء ولا فارق معه في شيء.

اختيار في البداية، فقد اختار طريق الحياة الذي يسلكه وعاش معه، بغض النظر عن سعادته وطريقة سيره، ولكنه كان اختيارًا وأتبعه قرارات وعواقب حتمًا سيرضى بها، فأصبحت إجباري، أصبحت حياته إجبارًا وفارقها بأسوأ اختيار وقرار...

من البداية:-

عد معي إلى البدايات، تذكرها، اسمعها أو حتى اشعر بها، عد إلى أيام لا ينسى منها الكثير، هناك فيها ما نحياه كأنه اليوم والساعة والثانية، إلى بدايات الروح المتحمسة وإلى بدايات صفاء القلب المستريحة، إلى الأيام والشهور والسنين، أراك تتذكر الآن وتعود إلى البدايات، أتتذكر البراءة الكامنة في الصدور والراحة الراقدة في العقول، أتتذكر القلب الذي لم يكره ولم ينتقم، لم يشته ولم يسرق، لم يسرق مشاعر ليست ملكه، لم يفعل غير الحب وبعض من براءة الحنان، ولكنه ليس اختياريًا عندما كان الفرح عنواني من أبسط الأشياء وأصغر التفاصيل. هل عدت معي؟! هل تذكرت؟! ليتني عدت طفلًا!!

اللامبالاة، هي طريقة من صنع البشر يعتقدون أنه من خلالها ستتفادى كل عقبات الحياة وستحيا سعيدًا تحت عنوان ''لا فارق'' لكن أحيانًا يجبر الإنسان عليها ولا يصغها.

وصل إلى الباب، كان هذا في الثانية عشرة مساءً، الوقت الذي يتسلل فيها السارقون إلى محل سطواتهم، هو نفسه الوقت الذي ينام فيه الأطفال معًا، تراودهم أحلام غد قريب، اختلفت معاني الغد ولكن اتفق الجميع على أنه قريب.. قريب جدًا.

كان الجو باردًا حينما وصل، أخرج سلاحه الصغير ووجهه أمامه عندما وجد باب البيت مواربًا، فكر حينها في هذا، أيكون فخًا؟!

أصبحت لديه قاعدة أولى وأخيرة.. كان عليك ألا تأمن الصديق فكيف تأمن العدو؟؟!! لماذا ترك كريم باب شقته مفتوحًا في هذا الوقت؟! تقدمت إلى رأسه فكرة أن يكون قد سرق أو حدثت واقعة ما؟! لكن لا يعلم! تقدم خطوة واحدة، فلم يرَ غير الظلام، سلط كشافه للأمام وتسلل بهدوء بجانب الحوائط الشامخة، بيت غير منظم والفوضى في كل مكان، هذا الذي كان منقوشًا ومزخرفًا ورائعًا منذ أيام!! حقًا إن للزوجة لدور عظيم، أكمل طريقه حتى وصل عبر الطرقات الضيقة إلى حجرة مغلقة سمع من خلف أبوابها صوت موسيقى هادئة، نغمات دون كلام أو غناء حاول التمعن فيها ومعرفتها، لكنه لم يصل لشيء، تشبه موسيقى التسعينيات من القرن الماضي أو بدايات القرن الحالي، تذكر أنه قد سمع مثلها في طفولته، سمعها كثيرًا.

الحنين للماضي.. الذروة التي نصل إليها بعد حاضر عصيب

ومستقبل مبهم..

لا يدري من بالداخل؟! وماذا يحدث؟! ولكن يعرف أنه يجب عليه الدخول! أخذ نفسًا ووضع يده على مقبض الباب، فتحه ثم دخل في أقل من الثانية رافعًا سلاحه ومراقبًا يمينه ويساره، ولكن لم يجد ما يقلقه ولم يلفته ما يدعو إلى ذلك السلوك وتلك القوة.

لم يجد غير شاب ضعيف يرقد أمامه وجهه شاحب وعيناه حمراوتان، يفتح فمه بصورة وحشية ولا يقدر على الحراك، إلى جانبه عدد من زجاجات ال"ستلا" ملقاة في كل مكان، الطفاية على سريره ممتلئة هي الأخرى، أراهن أنه قد شرب ما يقارب العشر علبات في الساعات الأخيرة، كانت بيده إحدى تلك السجائر يخرج منها الدخان ذا الرائحة المميزة عاليًا فيقتل الجو في المكان.

تفحص هذا الشاب جيدًا، إنه كريم، قطع تلك المسافة لأجله ووصل هنا من أجل هذا اللقاء لكنه لم يتوقع هذه الحالة وهذا المنظر! ماذا حدث له؟ كان الآخر ينام أمامه رافعًا جبهته لأعلى فاردًا ظهره على مسند الفراش خلفه، حرك يداه حتى وصل بالسيجارة إلى شفتيه فسحب نفسًا عميقًا ثم أخرج سحابة قد حجبت رأسه بالكامل وغطت كل ملامحه ولكنها سرعان ما اختفت في تلك اللحظة.. اطمأن ياسين من عدم وجود فخ أو مؤامرة، فكشف عن وجهه وحمل أقرب كرسي خلفه وجلس ولم

تقفل عيناه لحظة بل ظلت تراقبه...

– ياسين محمد هاشم!

خرجت تلك الكلمات منه وعلى الفور سحب نفسًا آخر ولكن هذه المرة أطول. اندهش ياسين من هدوئه ومن دمه الذي يجري ببطء شديد في عروقه، إنها اللامبالاة!

اللامبالاة هي طريقة من صنع البشر يعتقدون أنه من خلالها ستتفادى كل عقبات الحياة، وستحيا ''سعيدًا'' تحت عنوان «لا فارق»، لكن أحيانًا يجبر الإنسان عليها ولا يصنعها.

– أنت بقى مين؟!

يسأله ياسين.. عندما نبدأ في لعب لعبة الغموض، ونستعد لكشف الأوراق تكون هذه البداية.

إذا هي «البداية»، عد معي إلى البدايات!

شهق كريم شهقة أعلن من خلالها أنه سيبدأ الحديث وأنه مستعد بل على أتم الاستعداد.

– أنا اليتيم، إللي كل الناس بتعطف عليه!

– لا أنت مش يتيم، أنت مريض، سمعت عن المرض النفسي!!

الاضطراب النفسي.. هو نمط سلوكي ينتج بسبب الشعور بالعذر والضيق مما يغير في سمات الشخص المضطرب بمرور

الوقت وعبر الزمن.

– أعرفه، أعرفه أوي، بس تعرف أنت إيه عن القصاص أو الانتقام؟!

– أعرف إنك دمرتني وإن قصاصي معاك!

– بس أنا قصاصي مش معاك ولا عايز أنتقم منك!

– أومال عملت فيا كدة ليه؟؟ يا مريض!

وقف الحديث وهلة لسحب نفس آخر، تمالك ياسين نفسه وسيطر عليها جيدًا! كيف يكون هذا الشخص أمامه ويتركه دون شنقه أو تقطيعه أو تعذيبه!! كيف؟؟؟!!

– أنا اتولدت شفت أمي؛ ياما بكيت في حضنها وضحكت مع ضحكتها، مكنش ليا غيره.. عشان أنا أبويا مات وأنا عندي سنة! أنا فاكر ٦ سنين و٧ سنين وأنا طفل بحبي بس فاكر، فاكر لما كنت بجري عليها وبسمع صوتها، كانت بتتألم بس محسستنيش بده أبدًا.. فاكر الراجل إللي كانت متجوزاه، إللي كان معذبها وبيهنها، عارف معنى إنك طفل مكملتش ٨ سنين، تشوف أمك متعذبة قدامك وبتضرب وتتهان كل يوم قدام راجل مش أبوك، راجل متجوزاه عشان تجيب أي قرش تصرفه عليك، راجل كان يرجع سكران بالليل يغتصبها قدامي، كان قدامي، أنا فاكر دموعي وقتها فاكرها

كويس. وأنت لا حول ليك ولا قوة بل أنت مش فاهم حاجة بس بتتألم!!

– الراجل ده اسمه مسعد حافظ. صح؟!

سأله ياسين بعد أن بدأ يفهم كيف كانت تسير اللعبة جيدًا! أما كريم فأكمل قائلًا..

– مسعد حافظ، هو بالظبط.. عقد عرفي ضحك بيه على ست ابنها متيتم وعايزة تصرف عليه فمكنش قدامها حل غير الجواز، الجواز إللي كله عفة وطهارة اتحول لعذاب وظلم، أنا حتى لحد دلوقتي معرفش العقد فين؟!

الماضي مؤلم عندما نتذكره، تراه يؤلم عندما نفكر فيه بعقولنا وفي نفس الوقت نتحدث به على ألسنتنا!

سحب هذا النفس الأخير ثم أطفأها جانبه، أمسك بالعلبة وأخرج واحدة أخرى، ثم أمسك بولاعة وسحب نفسًا كبيرًا، هذه الحكاية ببساطة، ثم أكمل حديثه...

– دخلت الدار وأنا عندي ٨ سنين بعد ما ماتت، لا شكله ولا اسمه غاب عني طول ما أنا هناك! حتى ماخدنيش يربيني ولا بعت فلوس يصرف عليا، ويا ريت الدنيا ضحكتلي في الدار، لكن كنت محل تجارب للدكتور العظيم عبد السميع صاحب شركات الأدوية «bwc»..

– وبنته اسمها إيمان، إيمان عبد السميع؟؟

تيقن ياسين أنه يجلس أمام رجل قد دمرته الدنيا وعقدت روحه فأقسم أن يحاربها، يحارب الحياة، يحارب قدره..

هل المنتقم خلق أعمى؟!!! أم أن الانتقام هو من يخلق العمى!

عاد كريم ليكمل حكايته من جديد..

– إيمان ديه ضحية مش أكتر، بس ده نصيبها، أبوها استغل أطفال يتامى لتجربة أدوية ومنشطات بل مخدرات كمان، طفلين يتامى ماتوا وأنا شايفهم، طفل عنده ٩ سنين يشوف كل ده بعنيه.. طفل يجروه لأوضة مقفولة ويحقنوه ويعملوا عليه تجارب.. كنت تدخل مكان كله رعب.. أطفال صغيرين نايمين روحهم مخطوفة قدامك شكلهم بشع وأنت خايف وبتعيط!! لولا إن حصل ساعتها قلق وقفوا بيه النشاط الوسخ ده وأنا سبت الدار لكن منستش!! منستش الراجل الكبير المدير إللي كان يدخل يراقب الأطفال وهم بيموتوا منستش.. كان لازم يبكي على بنته في يوم.. شفت بقى الطفل اليتيم ده .. عايزه يكبر إزاي!

– أكيد مريض نفسي! إيمان زيها زي مريم؟؟؟!

يعرف كريم أن إيمان المسكينة قد ماتت بدماء باردة جدًا، لم تعلم بماضي أبيها ولا تجاربه، كانت ترعاه وتصبر على رعايته

وتعمل باجتهاد، لكنه أراد لعبد السميع أن يجرب فقدان الولد، أن يفقد قرة عينه فيشعر عندها باليتامى الذين لم يجدوا الأم تخاف عليم والأب يتصدى لحمايتهم..

الآن اكتملت الصورة، ارتسمت في خاطر ياسين بالألوان بالأحبار والأقلام، كان هو الكارت والمحرك الذي يلعب به كريم من أجل إرضاء شهوة الانتقام، استغل صديقه المخلص في ليلة سكر وغثيان لمعرفة ما وراء الستار، فعرفوا الكثير والكثير، عرفوا حادثة سها وما فعله يومها فقادوه مثل الكلب يرعى أغنامهم أو ذبيحة قد هبأت لملء بطونهم، ولكن ما ذنب المسكينة مريم ولماذا حدث لها ما حدث؟

– طب ومريم، ذنبها إيه مريم؟؟؟!

كان صوته عاليًا بعض الشيء، ودموعه تساقطت فمسحها على الفور، اهتز للحظة ولكنه عاد في موضعه من جديد وتماطلت أنفاسه..

– أنا مكنش قصدي، أنا كنت عايز مسعد مش قصدي هي..

انغلق فم ياسين وفتح جرحه من جديد، فلم يكن قد التأم قط!! نظروا إلى بعضهم البعض، أحدهما يريد أن يستيقظ ليجد أن هذا الكابوس انتهى والآخر يريد أن يموت ليبعث في حياة جديدة..

نظر كريم إليه وقد اهتز أخيرًا بعد كل هذا الثبات وقال..

– جت فيها غلط!! غصب عني..

انقلبت نبرة كريم إلى الألم.. إلى الضعف.. ولكنه سرعان ما عاد..

أمسك ياسين بمسدسه وكاد أن يشق رأسه نصفين عندما اقترب منه وصوب نحوه ولكنه تراجع وهو يبكي بحرارة فقد فار وانتفض!

– أنا إللي اخترت.. أنا مش هشوفها تاني!

«كان باختيارك..»

الاختيار.. هو قرار في أنفسنا حيث نفضله على غيره ونتحمل نواتجه مهما كانت.

– صح، كان اختيار، اختيار عكس المسار.

– أنت ربنا بيحبك.. إنما أنا بيكرهني.. سارة بتموت.. أنا مش عارف أعمل لمراتي حاجة.. مش قادر.....

لم يكمل كلماته حتى سمعوا صوت خطوات هادئة تقترب منهم خفيفة غير متعجلة.. فتح الباب وإذا بها تدخل وهي تستند على عكاز تتحرك به.. يبدو عليه المرض وأعراض الحادثة ما زالت واضحة.. رفعت عينها تنظر لكريم الذي ترك ما بيده ونظر غير مصدق لها.. كانت تعاتبه عتابًا مهموسًا مكتومًا أما هو فقد توالت دموعه وعلم أنه قد قُضِي عليه.. علم أنه «لا فارق»..

وقف ياسين يشاهد هذا اللقاء ثم أنزل سلاحه الذي كان يرفعه ووقف الجميع للحظات في صمت شديد..

في هذه اللحظات، انطلقت صيحات عربات الشرطة في كل مكان، انطلقت تدوي كالأسود الثائرة على فرائسها، في هذا الوقت أوقف ياسين ما كان يسجله من حديث بينهما.!

أحدنا اختار أن يكمل ما قد بدأه حتى سقط والآخر عاش الباقي من عمره يصلح مساره، آمن بالفرصة الثانية وآمن بالقدر!

نظر إليه ياسين نظرة أخيرة، والله لولاها لأخذ قصاصه بيده ولكن ''ارجع لنفسك يا ياسين''، ''ارجع يا حبيبي''، آه من هذه الكلمات لم تفارقه بل سمعها كل يوم منذ أن رحلت وها هو قد حقق عدالته وعاد، لقد عاد بعد لحظات حرجة ولكنه سار في الطريق، فأصبح مساره سابقًا ومساره حاليًا مسارًا اختياريًا.

تدين وتدان: الأربعاء ٢٣ فبراير

– كما تدين تدان يابني..

قالها محمد رضوان وهو يجلس أمامه كريم المتهم الذي كان قليل الكلام والحديث.. كيف يتكلم وأصبحت كل الأدلة موجهة إليه مباشرة!! التسجيلات التي سجلها ياسين والتي أعطاها لمحمد رضوان.. مالك واعترافاته.. الورقة التي كتبها سنارة والتي صرح

فيها بالمكان الذي كانوا قد اعتادوا على التجمع فيه والتخطيط.. حتى الشخص المجهول الموكل بأخذ الحقائب التي تحمل الأسلحة وأدوات الجريمة ثم يتصرف فيها بعيدًا عن الأنظار، أمسكوا به واعترف أن كريم هو من أرسله.. أصبح كل شيء يتهمه الآن فلا فائدة من الكلام.. أغلق محمد رضوان ملف القضية وأمر بإرسال كريم إلى النيابة في الصباح التالي على أن يتم حبسه تلك الليلة بين الحوائط وقطبان الحديد وحيدًا في زنزانة منفردة..

أما سارة فذهبت لأهلها الذين رحبوا بها وأقبلوا على رعايتها ومداوتها لكنها أصبحت خرساء لا تنطق بكلمة واحدة.. إذا دخل عليها أحد وجد الدموع على جبينها وكأنها حبل لا ينقطع.. امتنعت عن الذهاب إلى زوجها كما امتنع عن زيارتها وقت الحادثة، وبقت وحيدة تضم ساقيها إلى صدرها ثم تحتويها بذراعيها وتبقى كما هي في فراشها..

أما ياسين فقد اختار مسارًا مختلفًا.. لقد انتقم بأسلوبه الخاص وأرضى نفسه باختيارته المتأخرة بعض الشيء، ولكنها واجبة ولا سبيل غيرها.. كانت خطته هي الاتفاق مع محمد رضوان على الإمساك بهذه العصابة.. تقابلوا في شقته بعد مقتل مريم ببضع ساعات..

– يابني أنا هثق فيك ومعرفش ليه وأرجوك متخيبش ظني!!

– أنا عارف إن حضرتك قلقان مني بس أنا معنديش حاجة باقي عليها، كان ممكن أهرب وأنتقم بنفسي بس كتر خيره إللي نصحني بكدة، خلي بالكوا من والدي وأختي بس..

– حاضر يابني..

كان فكرة ركوب هاتف سنارة وملاحقته هي من صنع ياسين، فلقد تعلم هذه الأشياء من قبل وكان خبيرًا بها لكنه لم يجربها وهنا كانت المخاطرة.. وافق عليها محمد رضوان وقد نفذت بدقة كما نفذت باقي الخطة ووصلوا لتلك النتائج المدهشة..

آخر لقاء بينهما كان في تلك الليلة التي تم فيها القبض على كريم.. استلم محمد رضوان التسجيلات وعانق ياسين بشدة وشكره على هذا العمل الكبير وهذه الصورة المشرفة التي ستحكى للأجيال القادمة ووعده بذلك.. وعده بأن يحكى لهم عن هذا الشخص الذي غير مساره وصحح اختياره.. عن البطل الذي بالرغم من أفعاله السابقة وجرائمه غير المتعمدة فإنه حقق العدالة التي سوف تحقق في النهاية.. أخبره أنه رسول في هذه الدنيا ليحققها وإن لم تحقق على يده سيأتي بعده من يحققها إلا اليوم الذي تتحقق فيه عدالة الأرض والسماء.. عدالة ربه الذي لا يظلم عنده أحد.. هناك سوف تنطق الأيادي دون إجبار أو إكراه.. ستتحدث الأيادي والأقدام.. ستفضح المذنب مهما كان في دنياه.. الكل وقتها سواء.. هناك عدالة أخرى لا نعلم عنها شيئًا..

كانت تلك القضية محل إعجاب لمحمد رضوان.. أحس فيها بالعظة وأراد أن يتعلم الجميع.. الشاب قبل الشيخ والفتاة قبل السيدة فأمر بوضع مقال كبير على أشهر الجرائد كما أمر بنشر

هذا المقال عبر مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية وبرامج الشاشات اليومية.. تحدث الكل عن تلك القضية.. تحدثوا عن انتقام كريم وطفولته المشوهة والمضطربة وعن فساد سنارة وماضيه المخزي، لكن بالرغم من هذا ضعفه أمام ابنته.. تحدثوا عن مالك الذي أضاع كل شيء وضاع مع كل شيء.. تحدثوا عن ياسين وتغيير المسار والسعي وراء الخلاص والعمل الصالح.. كانت العظة واضحة.. كما تدين تدان.. إذا افعل ما شئت.. كان المقال بعنوان

«مسار اختياري»

مريم :

- أنا طالب بس من حضرتك طلبين.. الأول مسعد حافظ، أنا دافعت عن الراجل ده وخطيبتي ماتت يومها بس لو كان كلام كريم صح، وأن عمل في أمه إللي قال عليه لازم متسبهوش ولازم تلاقوا العقد.. أرجوك
- من غير ما تقول يابني، لازم هعمل كدة.. خصوصًا إن مسعد محكاش حاجة لما قابلته من كل الحقايق ديه، استكفى ببعض المعلومات عن علاقته بكريم في الشغل، صدقني هوصل للعقد العرفي ده وهجيبه وهحاسبه، أوعدك..

أومأ ياسين رأسه بالرضا ثم قال له..

– تاني طلب.. ممكن لو حضرتك تسمحلي بيوم هعمل تلت مشاوير وبعدها هسلم نفسي.. أظن حضرتك واثق مني؟!

– ماشي ياسين، مستنيك..

كان هنا العناق والوداع على أمل اللقاء بعد قليل.. أذن له محمد رضوان وكيف لا يأذن له.. لقد أصبح محل ثقة الآن..

سار ياسين.. أحيانًا يمشي وأحيانًا يركب.. كانت وجهته الأولى هي أبوه وأخته.. كان أبوه يعلم بالأمور من بدايتها فقد أخبره رضوان باشا بالأمر.. استقبل الأب القدير الخبر بكل هدوء وأناة.. لم يثر ولم يغضب.. لم يتبرأ من ولده ويتركه في أزمته بل ساانده وأبلغ محمد رضوان أنه فخور به.. فخور بأنه سلك المسار المناسب وعليه أن يبلغه أنه معه وسيبقى أباه الذي يحبه إلا أن يلقى وجه رب كريم..

وصل ياسين إلى بيته فإذا بأخته تفتح له وتحتضنه بشدة.. فقبلها وأمسك بها وكأنه لا يريد تركها أبدًا.. قابل أباه بعدها بنظرة عذر واستعطاف فما كان من الآخر إلا أن شاور له أي أقبل فعانقه وقبل يده وطلب منه السماح. فنال رضاه..

ترك أسرته المتواضعة وترحم على أمه وقرأ لها الفاتحة ثم توجه إلى الشوارع والميادين وسار بجانب الناس..

هل عليه أن يعترف أنه يقبع في الهاوية منذ مدة؟؟! أم أنه

يسقط فيها تدريجيًا!!

وجد أحدهم يمشي عكس طريقه فسأل نفسه من منا على الطريق الصحيح!؟؟ ثم وجد الآخر على طريقه يسيروا معًا في اتجاه واحد، فكان السؤال هنا، أتكون نهايتنا واحدة؟؟! هل تختلف النهايات باختلافات المسارات؟! أم أنها واحدة مع اختلاف الوقت والزمن؟!

لا يدري ولا يريد أن يعلم.. لم يعد يريد شيئًا.. لقد رضى واستحق ما استحقه.. الآن لا شيء!

وصل إلى البيت القريب إلى قلبه ولو أنه جاءه مرة واحدة فقط ودخله مرة واحدة فقط ولكن مرة لامست شغاف قلبه وغيرت مصير حياته.. يطرق الباب وينتظر إلا أن فتح له..

– إزيك يا عم أنور..

– حبيبي!!!!

قابله بابتسامة قانعة. فرح العم أنور بلقائه، فترك سبحته وعانقه بشدة.. دومًا ما يذكره بحسام.. لا ينسى ياسين فضل هذا الرجل عليه هو من نصحه باللجوء للضابط والإسراع إليه، فقد كان على معرفة بمحمد رضوان.. أخبره أنه عادل وأنه لا يخاف في الحق أحدًا، وسيجلب له ما أراد..

جلس معه وحكى له مشواره الطويل والذي اتسم بالصعاب

والمخاطرة لكن انتهى بالراحة ثم تذكر البطاقة وقد كان العم أنور قد أعطاها له حتى يتخفى تمامًا تحت اسم حسام، لجأ إليها ياسين عند شراء الهاتف.. كان يخشى من وصول أعدائه إليه ومعرفته من اسمه..

– البطاقة يا عم أنور، شكرًا ليك ولحسام وربنا يرحمه..

ابتسم له العم أنور وعانقه بشدة ولكن سرعان ما استأذن ياسين وانصرف لأمر عاجل، فودعه على أمل اللقاء القريب..

****

في الشوارع المزدحمة وأحد الميادين الرأيسة وقف ياسين منتظرًا.. نظر إلى ساعته أكثر من مرة.. هناك أمر ما قادم له ولكنه تأخر بعض الشيء.. انتظره للحظات أخرى فإذا بأحد سائقي الدراجات النارية يقف أمامه...

– أستاذ ياسين؟

– اه تمام..

– اتفضل، الحساب ٣٠٠ جنيه إن شاء الله..

ناوله ياسين المال الذي كان قد جهزه من قبل وشكره وانصرف..

فتح الشيء الذي أعطاه له.. كان عبارة عن مستطيل كبير

يحمل صورة غير واضحة.. بروازا معلقًا كبيرًا،، أخرجه ياسين من الورق والكرتون الذي كان يلتف حوله ثم عدله ونظر إليه.. كانت هي.. اليوم الأول الذي رآها.. هي بصورتها التي لم تغب عنه لحظة.. هي بعينها اللامعتين وبخديها الباسم وثغرها الصغير.. هي مثل المرة الأولى والأخيرة.. لمسها.. لمس صورتها بيده.. كأنه معها الآن.. كأنه قريب منها.. قلبه لمس روحها.. أحس بها بجواره.. هي.. هي مريم.. انتفض جسده لوهلة وارتعش ولكنه تحامل ثقل المشاعر وصعوبة الموقف فمسح الدموع التي سقطت دون إرادة أو قصد وحمل البرواز وانطلق..

وصل إلى عدد من البيوت الصغيرة.. كلها واحدة الشكل.. كلها بناء واحد ودور واحد.. يسكنها أجساد لا فرق بينهم.. رجل وامرأة.. غني وفقير.. الكل هنا في عالم آخر.. دنيا أخرى.. حياة أخرى..

– السلام عليكم أهل البيت..

رفع صوته عاليًا وهو ينادي ثم أكمل بهذا الصوت وهو يقرأ الفاتحة حتى وصل إلى أحد تلك البيوت.. «مقابر آل الحاج عبد التواب»..

دخل إلى بيت حبيبته الجديد.. وضع صورتها أمامه عاليًا فوق رأسها تمامًا.. هي ترقد هنا تحت هذا البرواز الآن.. ثم جلس أمامها وأطال النظر..

– وحشتيني يا مريم!

أراد أن يصرخ، يبكي، لو بيده لنزل إليها.. لو بيده لضمها بين أحضانه.. لم ينل هذا العناق في حياتها.. ترى كيف يناله الآن؟؟!

– مريم أنا رجعت.. أنا ياسين..

عدي لي لحظة الآن، ثم غبي عني ألف عام!!!

– أنا بقيت كويس.. ساعدت الشرطة وقبضوا على إللي كانوا السبب.. أنا عارف إنك فرحانة دلوقتي.. أنا عملتلك إللي طلبتيه!

نظر إلى صورتها واختلط ابتسامه مع دموعه..

– عارفة إن شكلك حلو في الصورة أوي، ديه أول صورة أخدهالك أول معرفتك على فكرة..

اشتد بكاؤه لحظة ثم نظر إليها وهو مستمر في بكائه لا ينقطع..

– أنا بدعيلك ونفسي أوي أجيلك..

في تلك اللحظة أحس برخاء في جسده، هدأت كل حواسه، شعر بدمه بارد ثم تثلج فأحس معه بالبرد الساقع يقتحم رئتيه فجأة.. ضم جسده وملم نفسه وارتعش وهو ينظر لها.. قاوم حتى أسند ظهره على الحائط خلفه ولكن ما زال ينظر إلى عينيها.. ابتسم لها وهو يتفوه بصوت مهموس..

– توفني اللهم مسلمًا، ألحقني اللهم بالصالحين..

ضربات قلبه خفت بسرعة قصوى وأحس بدوار شديد، روحه تخرج ببطء وبصعوبة بالغة يكاد يتنفس، هو لا يقاوم ولا يرغب في المقاومة، ردد الشهادة وعينه ما زالت تنظر لعينها، بدأت عيناه تنغلق وآخر ما رأته كانت هي، انغلقت أكثر، ثم ارتاح جسده وارتخت يداه ورحل للأبد، إلى مريم عاد.. إلى أمه عاد.. إلى خالقه عاد..

ألم أقل لكِ وأنتِ ترحلين من قبل، أن لكِ ميعاد.. أنه لكِ عودة....

تمت بحمد الله